رحلة إلى الجحيم

الكاتب: طارق يوسف
رحلة إلى الجحيم: رواية
تصميم الغلاف: محمد دربالة
تدقيق: بنت الزيات
إخراج فنيّ: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 26516 / 2017
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 512 - 6

دار بنت الزيات للنشر والتوزيع :Facebook Page
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

رئيس مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار بنت الزيات
المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

رحلة إلى الجحيم

رواية

طارق يوسف

سيف

خيّم الليل بظلمته على الكون وجاءتْ معه جيوش الأعداء زاحفةً نحو قلعة الملك "حياز"، جيش قوامه يتخطى عشرة آلاف بقدر ضئيل، يحتوي على الجند والفرسان والنشابين وتتخللهم المجانيق وبعض الوحوش الزاحفة التي لم يرَها أحد من قبلُ.

تراصَّ نشابو الملك فوق أسوار القلعة يرتجفون مما يرون، فبعضهم مزارعون وأكثرهم حدادون لم يتلقوا تدريبات إلا بضعة أسابيع.

يتقدم جند الأعداء بخطى منتظمة كالأشباح تلمع حرابهم تحت ضوء القمر، وقع أقدامهم على الأرض يبث الرعب في قلوب أعدائهم، ودقات طبولهم المدوية قتلت كل آمال الملك وجنوده، وعندما اقتربوا كفاية من القلعة توقفتِ الحشود، وخرج من بينهم رجل عظيم البنية مَهِيْب الوجه، عيناه تفيضان بالشر، يتبعه حيوان هجين يسير بجواره كأنه والده، ظل يردد كلمات مبهمة، ويرددها جنوده من بعده بحماسٍ شديدٍ فانتشرت صرخاتهم وصداها في كل الأنحاء كرسالة قصيرة جاءت من ملك الموت لتستقر عند أبواب القلعة.

رأيت الخوف يفيض من أعين الجنود البسطاء حتى تيقنت أنه لولا ذلك السور الضخم يحجبهم عنا، لسقط كل هؤلاء رافعين راياتهم البيضاء.

مررت فوق حصاني الأصهب على الجنود وصرختُ فيهم بصوتٍ حازمٍ:

- فلتدافعوا جيِّداً عن قلعتكم، وتذكروا نساءكم وأطفالكم الضعفاء، إنهم يحتاجون اليكم، يحتاجون عونكم، تذكروا كل الأوقات الجيدة التي قضيتموها تحت كنف هذه القلعة العظيمة، تذكروا جنودنا الذين بذلوا أرواحهم فداءً لنا.

كنت مطمئناً حيث لنا اليد العليا باحتمائنا خلف سور القلعة وأيضاً؛ لأن القلق لن يزيدنا إلا هلاكاً.

تركتُ الحصان وأخرجت سيفي من بيته الدافئ، وقفت مع الجند في انتظار بدء غمار الحرب وأهوالها.

أشار قائدهم معلناً عن بدء المذبحة بعدما صرخ في بوقه المقوّس، فانطلقتْ جنودهم مخلفةً من ورائها عاصفة ترابية صعدت الى أحضان القمر.

أشرت لجنودي بالسيف أن ابدأوا؛ فانطلق وابلٌ من السهام المسمومة نحوهم، سقط منهم عددٌ لا بأس به، ولكن كانت أعدادهم هائلة فتوالت الحشود الغاضبة بدون توقف.

* * *

خلتِ القلعة من الجميع إلا من ملك مستبد ومعاونه الفاسد ذي الوجه الخبيث.

وقعتِ الكأس من يد الملك وظلتْ تتمايل على الدرج حتى استقرتْ ونبذتْ ما في جوفها من الخمر، صاح الملك في رفيقه بصوتٍ متهالكٍ:

- أحضر لى "سيف" بسرعة.

رنا الخادم في وجه ملكه، وقد ظن أنه فقد عقله، كان يهابني كما يفعل الجميع حتى الملك نفسه لِما عُرف عني من الحزم والانضباط، ومؤخراً انفلات الأعصاب.

صاح فيه الملك مرة أخرى:

- ألم تسمعني أيها القذر؟.

احتدت قسماته وقال بصوت مرتعش:

- إنهم يحاربون يا سيدي.

قذفه الملك بإناء من الفخار -كان مستقراً بجواره- بقوى واهنة فوقع تحت قدميه، وانفجرت من تحته قنوات الخمر.

بعد وقتٍ قصيرٍ ذهبتُ إلى الملك غارقاً بدماء أعدائي، وكدْتُ أدقَّ عنق خادمه، حاولت أن أهدأ أمام الملك:

- نَعَمْ، سموُّكَ!!

كان أشبه بطفلٍ كسولٍ استيقظ من نومه للتوّ، قال متثاقلاً:

- هل أرسلتَ "فضاض" ورفاقه إلى الجزيرة؟.

- نعم، يا مولاي.

بدأ يبكي كالرضيع الذي فقد أمه:

- لقد انهارت القلعة بسببي.

ران الصمت علينا لبرهة، اقتربتُ منه ووضعت يدي على كتفه محاولاً تهدئته:

- رجالك في الخارج يقاتلون ببسالة، ألا تودُّ الانضمام إلينا؛ حتى تمنحهم بعض الثقة وتلهب عزيمتهم؟.

تغير وجهه واستعاد غلظته، صرخ غاضباً:

- أتقصد أنني أتكاسل عن واجبي؟.

نهض عن عرشه غاضباً، استل سيفه وشرع يمزق الستائر، ويحطم الأواني -المزخرفة المرصَّعة بالماس- المتراصَّة على جوانب الجدران.

ثم التفتَ حوله كمَن يبحث عن ضالَّته حتى رآني فصاح:

- اغرب عن وجهي أيُّها الوغد.

كان الملك قد فقد عقله قبل بدء الحرب ببضعة أيامٍ حين رأى كابوساً عن مقتل ابنه البكر "رُميح".

انصرفتُ مسرعاً وسمعته يهذي متمتماً:

- كلكم تنكرون أفضالي ... كلكم تنكرون أفضالي.

* * *

فضاض

انتشر الظلام في الأرض انتشار النار في الهشيم، ماتت النباتات، وانكمشت أوراقها، بعض الحيوانات ملقاةٌ على جوانب الطريق مبقورة بطونها، وقد جذبت أحشاؤها الذباب والديدان من شتى الأنحاء، ظلامٌ مدقع لا ينقشع، طغى على الشمس فلم تعد تشرق على هذا الجانب من العالم.

انطلقتْ مع صديقيَّ المخلصين بوجوه حزينة، وأفئدة مضطربةٍ بعدما تركْنا خلفنا القلعة وبها النساء والأطفال لمجابهة ذلك العدو الغادر الذي ظهر دون سابق إنذارٍ.

قال "نمير" بنبرة وَجِلةٍ:

- أتذكر تلك البقعة - مشيراً إلى بركة مياه ضحلةٍ - عندما كان الصيادون يجمعون الأسماك المختلفة في فصل الشتاء، ويعودون الى القلعة بالبراميل الممتلئة؟.

ثم نظر لي نظرة طفلٍ يستجدي معلمه، وقد لمعَت عيناه بالعبرات:

- هل ستعود تلك الأيام يا سموَّ الأمير؟.

احتضنت رأسه بين يدي، ثم دفعته للخلف قليلاً حتى اقتربت أنفاسنا:

- ستعود يا "نمير"، وسننقذ أبناءك وزوجتك.

قاطعنا "أُسداد" بلهفةٍ:

- انظر سموَّكَ ...

كانت هناك نار مشتعلة على بعد ميلٍ أو أكثر، تزداد حدتها مع هبوب الرياح، انطلقنا بسرعةٍ نحوها آملين أن نجد أحداً على قيد الحياة، قفزتُ مسرعاً من فوق حصاني بعدما وجدنا رجلاً يحترق حتى الموت، يتلوى يميناً ويساراً، ويغدو ويجيء في خطوطٍ معوجَّةٍ، ينازع ويصارع الموت، كان ممسكاً بورقة يبعدها عن النار بقدر ما يستطيع، وعندما لم يجد من الموت بدَّاً حاول أن يدفنها في التراب.

اقتربت منه وكان يلفظ أنفاسه الأخيرة، بَدا كأنَّه خرج للتوّ من معركة خاسرةٍ لِمَا رأيت في وجهه من جروحٍ، يبدو أن أعداءه لم يتمكنوا من هزيمته في قتال عادل، فأضرموا فيه النيران حتى يتخلصوا منه بسهولة ويمحوا أثره من الوجود.

عندما رآنا قال بصوتٍ تذروه الرياح:

- ابحثوا عن الكنز.

سقط الرجل صريعاً بينما تركنا في ذهولٍ شديدٍ، رُسمت علامات التعجب والاستفهام على وجوهنا، أيُّ كنز هذا الذي نبحث عنه؟، كيف يفكر محارب مثله في الكنوز في مثل تلك الأوقات الحالكة؟، إن المملكة متهالكة تكاد تنهار في أيّ لحظة.

توجهتُ إلى البقعة التي دفن فيها ورقته، فوجدتها ورقةً لخريطة غير مكتملة، تحمل مكاناً غير واضح المعالم، تفاصيل شحيحة لا تسمن ولا تغني من جوع، خطوط متعرجة لا تحمل أيَّ معنى وبعض الحبر باللون الأحمر القاني.

لاحظ "نمير" و "أسداد" حيرتي فمرَّرتُ لهما الورقة.

قال "أسداد" بصوت رخيم، وقد ضاقَتْ عيناه:

- لا بد أنَّ مَن قتله كان يبحث عن هذا الكنز أيضاً.

نظرت حولي في يأس فلم أجد إلا الظلام الذي يحتضن تلك النباتات والأشجار الهالكة وتلك الجِيف العطنة على امتداد البصر.

قلتُ له على مضضٍ مستنكراً:

- وأيُّ نوع من الكنوز قد يتواجد في هذه الأرض الموبوءة؟.

نظرا لي نظرة لائمٍ:

- هذه الأرض قد هلكت بذنوبنا يا سموك، حتى إن مرض سطحها، فإن باطنها لم يمسسه أذى.

ران الصمت علينا لبرهة، ثم خضنا نبحث عن بقعة آمنةٍ؛ لنخيّم فيها إلى أجلٍ غير معلوم.

قلتُ لهما بنبرة حزينةٍ:

- سنرتاح قليلاً حتى الصباح.

نظرا إليّ وقد هربت منهما ضحكة عفوية، فمِلت برأسي وقلت ساخراً:

- آه ... لقد نسيت، لا يوجد صباح.

قال "أسداد" مواسياً:

- لا تقلق يا سيدي، سنصل إلى الجزيرة، ونطلب العون كما أمرنا الملك.

- نحن حتى لا نعرف الطريق إلى تلك الجزيرة بعدما هلكت الأرض واختلط اليابس بالماء، كل الطرق أصبحت متشابهةً وكأن العالم كله أصبح مجموعة من الجيف والقاذورات.

لفت أنظارنا بقعة منزوية منخفضة قليلاً عما سواها، فربطنا الخيول في جذع شجرة مقطوعة، ألقينا بأمتعتنا بالجوار، ثم استقبلتنا الرمال بصدر رحب؛ لنريح أجسادنا قليلاً بعد عناء يوم طويل.

وضعت يدي خلف رأسي مستلقياً على ظهري، ووجهي مُصوَّب نحو السماء أراقب تلك النجوم التي طال بقاؤها، تلتف حول القمر الذي يداعبها كما يفعل الأب مع أبنائه.

أخرج "نمير" بعض أوراق التبغ التي اعتدنا أن نجمعها من حشائش الجبال، وأصبحنا نحرقها وننفخ دخانها فيطير ويسحب معه الهم والغم، فترقد الأجساد متراخيةً كأن الروح تركتها وذهبت في رحلةٍ مع أقرانها إلى عالمٍ خَفِيٍّ لا يراه أيُّ مخلوق.

قلت بينما أنفث الدخان كبركان ثائر:

- هلك جيش أخي "رميح" في مواجهتهم، وكادوا يقضون على كل جنوده عن بكرة أبيهم، ولم ينجدهم أحد، لولا موت قائدهم، لسقط جيشنا بالكامل.

- لقد قاتل سمو الأمير ببسالة، ولكن أعدادهم الكثيرة ووحوشهم الهجينة دائماً ما تمنحهم الأفضلية في أيِّ قتال.

- وما فائدة تلك الرحلة إن أبادوا القلعة وهى آخر ما تبقى من الحصون؟.

خيَّم الصمت علينا للحظاتٍ حتى قطعته قائلاً:

- فلتنعموا ببعض الرَّاحة، سآخذ النوبة الأولى.

تكوَّم الاثنان كحلزون يلتحف قوقعته هرباً من أعدائه، بينما شردتُ بناظري نحو السَّماء التي ما زالت محتفظةً ببريقها ولم يستطع الأعداء تلويثها.

أخرجتُ السِّلسلة التي أهدتني إيَّاها محبوبتي "كلنار"، كلَّما رأيت وجهها انبثقت بداخلي قوى خفيَّةٌ تدفعني إلى الصبر والتحمل ومواصلة تلك الرحلة؛ لعلي أرجع وأراها ثانية، ترقرقَتْ من عيني بعض العَبرات حتى اهتزَّت صور الأشياء في عيني، وما لبثت أزيل تلك القطرات الرقيقة من عينيَّ حتى وجدْتُه أمامي ....

* * *

سيف

خرجتُ من عند ذلك الأحمق الأشيب ذي العظام البالية والتجاعيد المقززة أسبُّ وألعن، منذ أن رحل الأميران من القلعة، وهو يهذي بعباراتٍ بعيدة كل البعد عن ذوي العقول الرشيدة، لا أدري لِمَ لا أستطيع أن أتحمل جنونه؟، ربَّما لِما نواجهه على أعتاب قلعتنا من خراب قريب.

صعدت إلى الأسوار حيث العذاب الأليم، فوجدت بعض جنودي يسقطون صرعى بعدما استقبلوا سهام العدو بصدورهم ورؤوسهم.

كان الأعداء قد شحنوا مجانيقهم، وبدأوا يقذفون الصخور الصماء الضخمة نحو مباني القلعة، بينما تراصَّ عدد منهم في خط مستقيم بالخلف، واكتفوا بقرع الطبول فصنعوا نغمات مدوية ألهبت وأثارت طاقة جنودهم، فأصبحت خطاهم تهز الأرض هزاً، تساقط وابل من الحجارة الضخمة من فوق رؤوسنا مصطدماً بتلك المباني العتيقة ذات القباب الدائرية، فتنهار المباني وتتساقط بسهولة كسقوط أوراق الشجر في فصل الخريف.

تلك المباني المنحوتة في صخور الجبل التي أذهلَتْ كل مَن رآها وهام بها من لم يرَها أو يسمع عنها.

أسرعت إلى بعض الجنود القلائل الذين تبقوا من جيش الملك، معهم أقواس ضخمة أنشأها مهندسون ماهرون، أمرتهم بأن يصوبوا رماحهم نحو تلك المجانيق قبل أن يتمكنوا من هدم السور.

كانوا يستخدمون رماحاً طويلة رأسها مدبَّبٌ، ويخرج منه ثلاث شفرات خلفية يصوبونها نحو مفاصل المنجنيق فيتوقف عن الحركة وينهار.

اقترب الأعداء من السور ومعهم سلاح يشبه صندوقاً ضخماً يتحرك فوق عجلات، يحتوي بداخله على كتلة خشبية ضخمة كجذع شجرة عملاقة، ومقدمة ذلك الجذع تشبه رأس ثور هائج مصنوعة من الفولاذ المنصهر، وتمتد من جانبيه مقابض يمسك بها الجنود، حتى إذا اقتربوا من السور دفعوا بجذع الشجرة نحو الصخر ليهدموه.

كان صياح جنود الأعداء يبث الرعب في قلوب المزارعين والحدادين البسطاء، رأيت بطرف عيني ستة منهم كانوا الأضخم حجماً والأبشع وجهاً يجرُّون هذا السلاح نحو البوابة الحديدية، بينما يتنحنح الآخرون من أمامهم؛ ليفسحوا لهم مجالاً وقد علَتْ صرخاتهم الحماسية،

ورددت ألسنتهم كلمة "المدقّ" كأنَّه السلاح الذي ينهي أهوال المعركة، وتناغمَتْ تلك الصرخات مع حركاتهم المنتظمة، وتمايل رؤسهم في زهوٍ وثقةٍ.

أسرعتُ إلى اثنين يقفان أعلى البوابة مختبئَيْن خلف أسوارها العالية، ويراقبان من تلك الفراغات بينها، رفعتُ سيفي، ثم قلتُ بينما ألتقط أنفاسي:

- الآن.

التقط أحدهما دلواً ممتلةً بسائل لزج لونه أسود قاتم، ثم ألقاها فوق ذلك الصندوق ومن حوله، ألقى الآخر شعلةً خلف الدلو مباشرة فانفجرت العربة، واحترق جنودها.

بالرغم من ذلك لم تضعف عزيمة أعدائنا، ولم يزدهم ذلك إلا قسوةً ورغبةً في الانتقام.

* * *

كان النساء والأطفال مختبئين بالداخل - في إحدى الصالات العظيمة - بقلوب وجِلةٍ، وأوجهٍ ذابلةٍ كأوراق الشجر، كانوا منكمشين ملتحمين ببعضهم كمجموعة من الدجاج الخائف من برد الشتاء القارس.

انتشرت بينهم الفوضى، وباتوا يركضون في أنحاء الصالة يختبئ كل منهم، ويحتمي بما يجده من طاولة طعام أو غيره بما يراه ملجأً مناسباً بعدما شرعت بعض أجزاء السقف في الانهيار، بينما فضّلت الأمهات أن يدفعن بأبنائهن، وبناتهن الصِّغار نحو بر الأمان تاركين أنفسهم للموت الذي لم يقهرهم، أو يعذبهم بمثل ما عذبتهم صرخات أولادهم ودموعهم المنهمرة لرؤيتهم موت أمهاتهم أمام أعينهم بلا حول لهم ولا قوة عاجزين إلَّا عن البكاء والصراخ.

* * *

بينما في مكان آخر بين جنبات القلعة ومبانيها العديدة كان يرقد الملك سالماً آمناً وكأن صخور الأعداء تخاف أن تمسسه بأذى.

يتلوى على فراشه المكسوّ حريراً غير مبالٍ بما يحدث خارج جدران غرفته أو ربَّما لا يعلم حتى بوجود معركة بالخارج يذبح فيها أبناء وطنه.

فجأة بدأ يصرخ كالطفل:

- "رميح" ... "رميح" ...

استيقظ مضطرباً، جلس على حافة فراشه، وجد خادمه قادماً بسرعة حتى كاد ينكفئ على أرنبة أنفه، فقال له بصوت غليظ بعدما احتدت قسماته:

- أين "رميح" ؟.

صمت الخادم لوهلةٍ، لم يجد ما يقوله أو يفعله، قطب شفتيه وأجابه بحسرةٍ:

- لم يعد بعدُ يا مولاى.

هز الملك رأسه للخلف كأنه تذكر أو ربما أراد أن يوهم عقله بذلك حتى يكف عن ملاحقته في غفواته ويقظته.

حاول أن يقف بصعوبةٍ قبل أن يتعثر وكاد يسقط لولا سرعة خادمه الذي مدّ إليه يده فنبذها بقوةٍ وألقى على سمعه:

- كُفّ عني يا خبيث، أنت السبب.

- مولاي، لقد أخطأتُ مرةً واحدةً.

التفت يمنةً ويسرةً ثم قال بنظرة خبيثةٍ:

- أمَّا أنت يا سيدي فأخطاؤك فادحةٌ.

صمت لبرهة يتأمل وجه سيده الشاحب ثم استطرد:

- ولا أحد يعلمها.

صمت مرةً أخرى وقد احتقن وجه الملك حتى كاد تنفجر منه الدماء، ضمّ الخادم يديه ثم قال قبل أن يرحل:

- حتى الآن ...

* * *

كُلنار

أذكر ذلك اليوم جيداً حين أتى "زعبل" إلى الملك ناصحاً ومحذراً، لم يرد إلا سلاماً يعم الأرض قاطبةً، لم يكن راغباً في مال أو سُلطةٍ، وفي مقابل رُشده وفطنته التي طالما تميز بها عن أقرانه لم يلقَ إلا آثاماً، ألقى الملك عليه أسوأ عقاب بالنسبة لإنسان مثله لا يملك من الدنيا إلا عقله الحكيم ولسانه الذي يستعمله في نُصح البشر وإرشادهم.

بعدها بفترة وجيزةٍ بدأت الشمس ترحل رويداً رويداً حتى اختفت تماماً، وانتشر الرعب بين الخلائق، بِتنا ننتظر شروقها يوماً بعد يوم ولكن بدون جدوى، حتى أصابنا اليأس ثم الخوف والذعر.

بدأت تتوالى على مسامعنا سقوط القلاع واحدة تلو الأخرى يوماً بعد يوم، وفي كل مرةٍ كان دور قلعتنا يقترب حتى جاء ذلك اليوم الموعود عندما سقطَتْ قلعة الرمال آخر قلعة متبقية غيرنا، وذُبح كل سكانها رجالاً ونساء، شيوخاً وأطفالاً.

طرق الرعب قلب الملك فأمر ابنه الأكبر "رميح" بقيادة جيشه إلى قلعة الرمال –وكانت قريبة منا على بعد مئات الأمتار-، وانتهاز فرصة أن جيش العدو لم يلبث أن خرج من معركة لتوّهِ منهكَ القوى بحاجة للراحة وغير مستعدٍّ، وكان يرغب أن يباغتهم "رميح" بينما هم نيام أو غافلون.

كانت تلك الفكرة جيدةً، ووافق عليها كل من حضر الاجتماع المغلق الذي خصَّه الملك لكبار القادة والأميرَين "رميح" و "فضاض"، وقد أصدر كل منهم بضع كلمات مرصوصةٍ منمقةٍ لا تخرج إلا من أفواه رجال الحرب المحنكين.

قال القائد الأكبر "سيف" :

- هذا صحيح، فإن خير طريقة للدفاع هي الهجوم.

وقال آخر:

- وبذلك نختبر قوتهم، ونعرف نقاط ضعفهم.

وقال ثالث:

- واذا هُزمنا تكون لدينا فرصة للانسحاب والمواجهة مرة أخرى خلف أسوار القلعة الحصينة.

أراد الأمير "فضاض" أن يخرج مع الجيش ولكن لم يوافق الملك، اضطربت ملامحه، واشتد صوت قبضتيه على المائدة، فقال له الملك بصوت لين:

- أريدك هنا في القلعة بجانبي كي تدافع عنها.

تلك الكلمات لم تُهدِّئْ ثورته، ولم تُخمد نيرانها ولكن قرار الملك لا يمكن مخالفته.

انتشرت البهجة على وجوههم وبدت تلك الخطة كحبل نجاةٍ تمسَّك به كل أهل القلعة المرعوبين.

لم ينتظر الأمير "رميح" إلى اليوم التالي، وبعد بضع ساعات من الاستعدادات الحربية وتجهيز الأسلحة وشحذها، خرجت قوات جيشنا العظيم الذي لم يهزم من قبل في أيِّ معركة بل أحيانا كان ينتصر قبل خوض المعارك، فسمعته العظيمة ألقت الرعب والهيبة في قلوب

أعدائه، فكانوا كثيراً ما يستسلمون بقلوب مطمئنة لِما عرفوه عن رحمة الأمير "رميح" بأعدائه المهزومين رجالاً كانوا أو نساءً.

فُتحت بوابة القلعة على مصراعيها، وخرجت الصفوف المهيبة في خطوط مستقيمة، الفرسان فوق خيولهم شامخة الرؤوس بألوانهم المتنوعة، فهناك الأصهب والأسود، وكان القائد على الحصان الأبيض الوحيد بينهم كبياض قطعة الثلج بداخل أرض طينية، تتخللهم أعلام عديدة، ترج خطواتهم الأرض رجاً، وخلفهم جنود تنطوي الأرض تحت أقدامهم، يحملون حراباً طويلة مدببة من مقدمتها وبها انحناءة بسيطة تلمع تحت ضوء القمر، ويتقدم بجوارهم جنباً إلى جنب في صفوف منمقة النشابون بزيّهم المميز ذي الأطراف اللامعة وخوذاتهم المصنوعة على هيئة رؤوس الأسود.

وفي المؤخرة جنود ذوي الهمم العالية يجرون المجانيق والأبراج الخشبية وبعض السلالم العالية.

وقد وُزع بينهم حَمَلة الطبول والأبواق.

تراص سكان القلعة جميعاً على جانبي الطريق وخرج ذلك الجيش الجرار من بينهم وسط هتافات أهلهم وذويهم، يرجون عودتهم سالمين غانمين.

وقفت مع أميري "فضاض" نراقب رحيل الجيش من فوق أسوار القلعة حتى أصبح الجنود ظلال متراقصة تحت الضوء الخافت.

قال لي بصوتٍ مرتعشٍ:

- أخاف على أخي كثيراً ، فهو متهور بطبعه، ومندفع خلف إحساسه بالقوة والشجاعة دون تفكيرٍ أو تروٍّ.

مسحت بيدي بعض العَبرات التي سقطت على خديه كسقوط الندى من أوراق الشجر، وقلتُ له:

- لا تقلق، إنَّ الأمير "رميح" قائد عظيم، ولديه عقل حربي لم أعهده من قبل.

اتسعت عيناه وقال مازحاً:

- لم تعهديه أبداً؟!

خرجتْ منا ضحكات هادئةٌ، ثم ألقى على مسامعي بصوت عذب:

- عندما ننتهى من تلك الحرب اللعينة.

جاء صوت غليظٌ من بعيد لم أرَ مصدره:

- الملك يريد سموك.

أطلقتُ زفيراً مضطرباً قبل أن أجذبه من قميصه عندما همّ بالانصراف، وسألته عن إجابة أعلمها جيداً:

- ماذا ستفعل بعد انتهاء تلك الحرب؟.

التفت إليّ؛ ليطالع وجهي كما لم يفعل من قبل، ثم جذب يدي برفق بعدما ابتسم مازحاً:

- هيا، الملك يطلب حضورنا.

كنت أغبطه على تلك الروح المرحة التي يمتلكها، يستطيع بكل سهولة أن يهرب من أحزانه بكلماته الودود، وروحه الطيّبة.

مرت بضعة أيام على خروج الجيش، ولم تأتِنا منهم أية أخبار، وأهل القلعة جميعاً بين حلم ورجاء، تركوا أعمالهم، ومكثوا يصلون أغلب الأوقات يلتمسون عودة أبنائهم وأزواجهم.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها جيشنا العظيم إلى حرب ما، ولكنها كانت الأولى ضد جيش لا يعلمون كُنْهَه ولا هُويَّته، قضى على أغلب الأحياء على الأرض، وذبح أعداءه كالخراف.

والأغرب من هذا وذاك أنه مع ظهور ذلك الجيش المظلم اختفت الشمس تماما حتى أصبح نهارنا ليلاً.

في إحدى الليالي صرخ أحد جنود السور بأعلى صوته بينما يهرول مسرعاً إلى البوابة:

- لقد عاااادوا .... عاااادوا.

استيقظ الجميع ودبّ فيهم النشاط على غير العادة، خرجوا لاستقبال أحبائهم.

فُتحت البوابة على مصراعيها، ولاح في الأفق بعض الظلال المتراقصة حتى اقتربت، فظهر الأمير "رميح" على حصانه الأبيض يشق الظلام الدامس وخلفه عشرات الفرسان والجنود وبعض الأبراج الخشبية.

انطلق الأمير "فضاض" نحوه، واحتضنه بقوَّةٍ حتى كاد يسقطه على الأرض، بينما ذبلَتْ وجوه الحاضرين وفقدت نضارتها.

أخذوا يتساءلون:

- أين أزواجنا، أين أولادنا، يا مولاي؟!

وثب الأمير من فوق حصانه وترك لجامه لأخيه، ثم تجول بين أبناء قلعته وبحسرةٍ قال:

- لقد ضحوا بأرواحهم دفاعاً عنكم، كي تنعموا بالأمان، ثم أشار بيده نحو الأبراج.

لم يكد ينهي كلماته حتى علت الأصوات اللائمة النادمة، رأيتُ أمهات تبكي، تنهمر دموعهم كالمطر حتى ظننتها لن تتوقف أبداً.

وآباء يبكون ظهراً وبطناً كالأطفال إلا من صدر متحشرج ألمَّ به المرض.

أسرعوا نحو تلك الأبراج يأخذون رفات أحبائهم، وعادوا إلى بيوتهم يجرُّون ذيول الحسرة، ضاقت عليهم القلعة بجدرانها وحواريها كضيق القبور على ساكنيها.

اجتمع الملك مرة أخرى بقادته في قاعة ضخمة فخمةٍ يقف على بابها حارسان يطوقانه برمحين معكوسين، استقبلت بالداخل علمين مائلين، رُسما بدقةٍ عالية تضفي رهبةً على القلعة وجيشها.

جلسوا جميعاً حول مائدةٍ طويلة حيث الملك في الجهه الرأسية - في صدر المائدة - والقادة حوله يميناً ويساراً.

قال الأمير "رميح" بصوت حزين:

- لقد وصلنا إلى مكان قلعة الرمال، فلم نجد حجراً واحداً منها، وكأن الأرض انشقت وابتلعتها.

قال أحدهم واجماً:

- أيُّ نوع من السحر هذا؟

صاح الملك غاضباً :

- لا أحد يقاطعه.

استطرد الأمير:

- وجدت مكان القلعة جيشاً جراراً لا يُرى آخره، جنود نائمون على مرمى البصر بأعداد لا حصر لها، ملابسهم سوداء كوجوههم، زادتهم ظُلمة الليل فأصبحوا كالأشباح راقدين.

أصبح المشهد كأنه نهاية الحياة التي نعرفها.

أخذ الأمير نفَساً عميقاً قبل أن يُكمل:

- أمرت جنودي بالصمت المطلق، وأعطيت إشارةً للنشابين، فاصطفوا في صفوف نصف دائريةٍ، فوق إحدى التلال المرتفعة نسبياً عن الأرض، ثم التقط كل منهم سهماً وسحب الوتر منتظرين إشارتي، وكنت قد أعطيت إشارةً للجنود أيضاً فتراصوا في خطوط مستقيمة أمام تلك التلة بين النشابين والأعداء، وأخذوا وضعيّة الدفاع، قدم ثابتة في الأرض كالأشجار العتيقة، والأخرى مائلة للخلف تمنع تراجعها، و يد تمسك رمحاً مائلاً للأمام والأخرى تحمل درعاً يحمي صاحبها.

بينما وقفتُ مع الفرسان خلف هؤلاء الجنود منتظراً اللحظة المناسبة للتقدم.

بدت علامات التَّشوق والترقب على وجوه الحاضرين، كان الأمير مُرهقاً جسدياً ونفسياً، ولكنه لم يجد مفراً من المواصلة، فاستطرد:

- لم يكن هناك أيُّ مبانٍ يحتمون بها، لذا لم يكن هناك فائدةٌ من الأبراج الخشبيه والسلالم، أمرت الجنود فتركوها، وشرعوا ينصبون المجانيق خلف الفرسان بعدة أمتار، صنعت مجالاً مناسباً يتماشى مع مدى المجانيق، ثم التقطوا كراتٍ ضخمةً من القش، ولقموا بها المجانيق، سكبوا عليها سائلاً سريع الاحتراق، ثم أضرموا فيها النيران.

اندفع أحد القادة وقال معترضاً:

- كل تلك التجهيزات ولم ينتبه إليكم أحدهم أو يستيقظ؟!

قال الأمير بهدوء مصطنع:

- لقد حدث كل ذلك في دقائق معدودة.

قال القائد "سيف" بنبرة طفل يستمع إلى قصص ما قبل النوم:

- أكمل يا سمو الأمير.

التقط الأمير أنفاسه، ثم اعتدل في جلسته وأردف:

- أمرت حملة الأبواق والطبول فتناثروا بين فئات الجيش المختلفة منتظرين الإشارة.

ساد المكان في تلك اللحظة صمت رهيب، لم يكن سوى السكون الذي يسبق العاصفة.

أصدرت إشارة مزدوجة بكلتا يديَّ فأطلق النشابون سهامهم، وترك الجنود عنان المجانيق فأرخت أجزاءها، وتناثرت كُرات القش المشتعلة فوق تلك الجثث الملقاة كنيازك مندفعة من فوهة بركان غاضب ينتقم من الكرة الأرضية.

انطلقت تلك الكرات تتدحرج فوق الأرض وتلتهم مَن يقف في سبيلها، وانهمرت السهام كسيل غزير فارتوت الأرض بدمائهم الملوثة.

ارتسمت بسمات عريضة على وجوه الجالسين، وهم يتخيلون ذلك المشهد البديع، فهو بالنسبة إلينا لا يقل جمالاً عن تلك اللوحات الفنية التي تأخذ الألباب.

استطرد الأمير وقد زاده ترقب القادة نشاطاً:

- في لحظةٍ تحوَّل المكان المظلم إلى حفرة من حفر الجحيم، انتشرت النيران وأضاءت الكون بتلك الأجساد الملعونة، وتراكمت سحب الدخان في السماء فزادتها ظلاماً، نهض جنود الأعداء فزعين غير مستوعبين لِما يحدث، بعضهم يركض للخلف، وبعضهم تيبس مكانه، وقد شُلَّت أرجلهم عن الحركة.
أصبحوا كقطيع الجاموس حين يرى أسداً، فينسى الجاموس قرونه الحديدية، ويفر دون مقاومة، أما هؤلاء فقد جاءهم آلاف الأسود فأصبحوا على ما فعلوا نادمين.

انتشرت الفوضى بين تلك الجموع العظيمة، بينما لم يتوقف كلٌّ من النشابين ولا المجانيق حتى أبَدْنا معظمهم وسقطوا صرعى، كانت الجثث أكثر مما يمكن عدُّه، أصبحت الآن الأعداد الهائلة التي كانت نائمة منذ قليل جثثاً خاوية بلا أرواح، بينما استطاع عدد صغير منهم أن يلوذ بالفرار، فأمرت بعض الفرسان بملاحقتهم وإحضارهم أحياء لننتزع بعض الأجوبة من بين صدورهم.

أمرت النشابين والجنود بالثبات في أماكنهم، بينما ترجّلتُ مع نفرٍ من الفرسان نحو تلك الجثث العطنة، كانت رائحتهم كريهةً كجِيَفٍ متروكة منذ أشهر معدودات.

شرعنا نفحص تلك الجثث فرأينا وجوههم السوداء لم تكن وجوهاً بشريةً، بل كانت أقرب إلى رؤوس شياطين على أجسام شبه بشريةٍ.

كانت السهام الدقيقة قد اخترقت أجسادهم، وأجساد أخرى ما زالت تحترق حتى تصبح رماداً.

انتظرت عودة الفرسان بأعدائنا أو حتى برؤوسهم، فلم أحصل على هذا ولا ذاك، مرَّ وقت طويل ارتابت خلاله عقولنا، وتوترت أعصاب الجنود، حتى سمعنا أصواتاً صاخبة لم نعهدها من قبلُ.

أصوات أقرب إلى زمجرةٍ غاضبة وارتطام بالأرض كأن وحشاً دفيناً حان موعد خروجه من أعماق الجحيم.

وقد صحبتها أصوات طنين مفحوحة، كاد الجنود يفرون من الذعر لولا أنهم ليسوا جنوداً عاديين.

لم ترعبنا تلك الأصوات بقدر ما أرعبنا عدم رؤية مصدرها.

بعد لحظات انقشع الحجاب، وكشَّر العدوُّ عن أنيابه، تساقطت نحونا من السماء رؤوسٌ بشرية تبعتها رؤوس خيلٍ بنفس العدد، لم تكن إلا رؤوس الفرسان الذين أرسلتهم خلف جنود الأعداء.

يا لها من وحشية همجية مرعبة!، لم يكتفوا بقطع رؤوسهم، بل قذفوها نحونا؛ ليثيروا الرعب ويحطموا ثقة الجيش المنتصر.

أمرتُ الجنود بالثبات، وقد التقط كل منهم سلاحه، وأصبحَتْ عقولهم في قمة تركيزها، متأهبون لأى شيءٍ قد يظهر من بين ظلمات الليل البهيم.

اقتربت الأصوات أكثر وزادت من سرعتها رياحاً قادمة تجاهنا كأن الطبيعة قد اختارت حلفاءها.

أصدرتُ إشارةً بسيفي فشرع حملة الأبواق ينفخون، وحملة الطبول يدقون، فصنعوا نغمات صاخبة تُلهب المشاعر، وتُحفِّز الطاقات الخامدة في الأعماق.

كان ذلك قبل أن تلوح أمامنا حيوانات مفترسة ضخمة الحجم طولها كطول رجلين فتِيِّيْن، حيواناتٌ ذات أفواه مفتوحة تكشف عن أنياب

حادة لامعة يسيل منها اللعاب، ولها آذان طويلة منتصبة، وعينان حمراوان تشبه كرات القش المشتعلة، أقدامها الأمامية أطول من تلك الخلفية.

كل حيوان منهم يحمل فوقه جنديين، أحدهما ممسكٌ بقوس غليظ، والآخر يوجه ذلك الحيوان اللعين.

وفي السماء ظهرت طيور تشبه الحيوانات، ليست من الطيور في شيء إلا من جناحين عظيمين كأجنحة التنانين الأسطورية.

صرخ القائد بقلبٍ وجِل:

- أسطورية؟!! وما تقوله الآن ليس أسطوريا؟.

ثم تسارعت أنفاسه وانتصب واقفاً، ثم قال بينما ترتعش شفتاه:

- أنا لا أصدق هذا الهراء.

قام الأمير "فضاض" من مجلسه متجهاً إليه، ربَتَ على كتفه، واصطحبه للخارج بينما غمز لأخيه أن يتوقف عن السرد حتى يعود.

تساءل الأمير "رميح" مشدوهاً:

- ما خطب هذا الرجل؟.

قال الملك يلتمس له العذر:

- إن لديه أبناءً صغاراً ويخاف عليهم، لا بدَّ أنه بحاجة للراحة.

عاد الأمير "فضاض"، فسمعهم يتمتمون فأسرع إلى مقعده قبل أن يسأل:

- ماذا فاتني؟.

فلتت منهم جميعاً ضحكات بينما ينظرون للأمير الشاب.

قال الأمير "رميح" بعدما أسند ظهره إلى مقعده وأرخى قدميه:

- كانت تلك الطيور تمتلك جناحين عظيمين، وذيلاً كذيل التمساح لكن أطول، أطول بكثير، لها قدمان قويتان كأقدام النسور ولكن أكبر حجماً، ورقبة نحيلة ممتدة عبارة عن لحم لا يكسوه ريش، برأسٍ لا يكسوه لحم، به عينان جاحظتان ومنقار مدبَّب.

ظهرت تلك الوحوش الهجينة جواً وبراً، فتراجعت صفوفنا تلقائياً كرد فعلٍ طبيعي كما يفعل مَن يرى كابوساً مزعجاً.

بدأت كرات القش تحلق في السماء مرة أخرى ولكن بقلوب وجِلة، وأعين مذهولة مِمَّا أطلقته بوابات الجحيم علينا.

شرعت كرات اللهب تتصيد تلك الوحوش على الأرض، بينما النشابون غيروا وضعهم، فوجَّهوا أقواسهم إلى السماء؛ ليصطادوا تلك الكائنات الغريبة التي احتلت السماء.

بينما تقدمت تلك الجحافل العملاقة بأقدامها العالية الرفيعة نحو الجنود فسحقت منهم عدداً ضخماً، وجعلتهم والأرض في طبقة واحدة، كانت رماح الجنود تخترق أجسادهم ولكن دون جدوى وكأنها شوكة صغيرة اشتبكت بقدم مزارع ضخم.

رأيتُ أحد تلك الحيوانات قد تعثرت قدماه الطويلتان بأحد الرماح المثبتة في الأرض فخرَّ على وجهه، ثم ظل يتمايل بجسده يمنة ويسرة في محاولات بائسة عديدة كي ينهض فلم يستطع التحامل على قدميه الخلفيتين الضعيفتين.

صرختُ في الجنود في شيء من الثقة:

- اقطعوا أرجلهم الأمامية.

وأخذت أكرر تلك الكلمة مراراً وتكراراً، بينما انطلقت مع فرساني وقد استلَّ كل منا سيفين في يمينه ويسراه، وأخذنا على عاتقنا مهمة تقطيع أرجل هؤلاء الملاعين.

كنتُ أمرُّ بين القدمين الطويلتين فوق حصاني، وذراعاي منتصبتان بالعرض يميناً ويساراً، فأقطع قدمين وأمر سريعاً من تحته قبل أن يسقط.

ظهر كيان آخر مختلف كان رأسه ورقبته كتلك الطيور الغاضبة، أما أقدامه فكانت كأقدام النعام، ويداه ليستا سوى سيوف مُنحنية للخلف يمتطي حصاناً أسود ويقف بعيداً.

انطلقت طيورهم نحو المجانيق تمزقها بأرجلها، ورغم مقاومة الجنود إلا أنها دمرت المجانيق جميعاً، بينما استطاع أحد الجنود أن يقطع رأس طائر فارتطم بالأرض، وصنع هزةً شعرْنا بها تحت أقدامنا.

تشبث جنديان بأحد الطيور -حين هبط من أعلى ليدمر منجنيقاً- وحلق بهما عالياً، لم يستطيعا أن يسيطرا عليه فالتقط أحدهما سيفاً وقطع رأسه.

كانت أعداد جنودنا تقلُّ بأرقام متزايدة، واستطاع النشابون إسقاط بعض الطيور، ولكن بعد أن دمرت تلك الطيور اللعينة المجانيق، اتجهت نحو النشابين وقتلت معظمهم.

انهار الأمير "رميح" وترقرقت من عينيه العَبرات، ذهب إليه الأمير "فضاض" وجلس بجانبه، وأخذ يربت على كتفه في حنان.

جمع الأمير شتات أعصابه ثانيةً وقال بحسرة :

- إنها لم تكن معركة، لقد كانت مذبحة.

احتل الحزن ملامح الجميع واعتلى قسماتهم.

التقط الأمير أنفاسه ثم استطرد:

- لمحت ذلك الكيان الأسود الواقف بعيداً ينظر للسماء ويتابع تحركات الطيور اعتقدت أنه يوجههم ويتحكم في حركتهم.

أشرت لـ "جلعوب" بيدي إشارة يعرفها جيداً –جلعوب هو جندي مفتول العضلات غاضب دائماً ويفضِّل استعمال الفأس-، فخرج من بين عشرات الجنود يدفعهم من أمامه يميناً ويساراً، ثم التقط فأسين طويلتين -معلقتين خلف ظهره- كل منهما به شفرة نصف هلالية حادة.

اتخذ الجنود صفين؛ ليمر من بينهم، وأخذوا يصيحون بهتافات، ويدقون بأسلحتهم على الدروع.

انطلق "جلعوب" نحو تلك الحيوانات يقطع أرجلها بحذرٍ، وكان خفيفاً صغير الحجم بالنسبة لهم.

بينما انطلقتُ تجاه ذلك الكائن البغيض مُشهراً سيفي، والتحمت معه في معركة شرسة، أضرب بسيفي فوق يديه الغريبتين، ويعاود ضربي فأتصدى له حتى قطعت إحدى يديه، ثم قفزت وأسقطته على الأرض، وسقطت قلادة من رقبته.

رفعت سيفي ثم هويت به على عنقه ففصلته عن ذلك الجسد البائس.

التقطت تلك القلادة، كانت قد تحطمت، وخرج منها سائل غريب، فجأة وجدت الطيور فقدت توازنها، وبدأت تصيح بصوتها المفحوح ثم حلقت بعيداً بدون رجوع.

وفي تلك اللحظة ازدادت السماء ظُلمة، وأطلقت تلك الحيوانات - الأشبه بالكلاب أو الضباع - أقدامها للريح، وركضت للخلف من حيث أتت مسرعةً، وبعدها سمعنا صوتاً مجلجلاً مكتوماً يردد كلمةً واحدة :

- الانتقام، الانتقاااام.

كانت أعداد قتلانا كبيرةً جداً، فلم يتبقَّ من عشرات الآلاف إلا مائة أو مائتا محاربٍ، وبالرغم من ذلك الانتصار الثمين علينا لم نشعر بنشوة الانتصار ولذته.

كانت الأرض قد امتلأت بجِيف تلك الحيوانات والطيور القذرة وحولهم جثث جنودنا وجنودهم، شرعت مع جنودي نحمل جثث قتلانا ونكدسهم في تلك الأبراج الخشبية التي لم نستعملها، ثم عدنا وقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت.

قال القائد "سيف" وقد ضاقت عيناه:

- ذلك الصوت الذي ردد "الانتقام"، هل معناه أنهم سيعودون؟.

مطّ الملك شفته وقال بحسرة:

- حتماً سيعودون.

عاد "سيف" يتساءل:

- ولكن إن عادوا مرة أخرى، فكيف سنتصدى لهم وقد سحقوا الجيش؟.

أغلق "رميح" قبضته وصاح غاضباً:

- فليعودوا مرة أخرى وسأمزق قلوبهم وأقتلع عظامهم.

قال "فضاض" وهو يحاول تهدئة أخيه:

- إن عادوا ثانيةً، فسيكون بأعداد قليلة، وإلا فسيستغرقون وقتاً أطول، وحينها نكون أعدنا تنسيق الجيش عدداً وعتاداً.

قال الملك بصوت رخيم:

- هذا صحيح.

ثم هدأ هنيهة، وقال لابنه الأصغر:

- اصطحبْ أخاك إلى غرفته؛ ليستريح.

ثم قال لـ "سيف" :

- جهز الفناء الخلفي جيداً، أريد نُصباً تذكارياً لا يُنسى للقتلى، عسى أن يجد ذووهم فيه بعض العزاء.

في اليوم التالي تُوجت القلعة بتلك الموسيقى الهادئة التي أجاد عازفوها إخراجها بصورةٍ لائقة تمس القلوب، وتُرخي المشاعر، اصطف الجميع خلف المقابر وتقدَّمهم الملك ليلقي عليهم كلمات لا تلتئم بها الجراح، ولا تمنع الغضب، ولا تُذهب رغبة الانتقام، ولكنها بمثابة وداعٍ لائقٍ لهؤلاء الأبطال الذين لم يفروا من واجبهم.

انتصب الملك أمامهم يتصبب العرق على جبينه، وقال بصوت متقطع بعدما توجه بناظريه تجاه نُصب تذكاري – مجموعة جنود يقفون في وضعية الدفاع ممسكين بعلم القلعة ورؤوسهم شامخة -

- فلترقد أجسادكم في سلام، ردعتم كلاب الجحيم، ففروا إلى أوكارهم كفئران رعديدة، وأبلغتموهم رسالة واحدة أنه لن يخطو أحد خطوة واحدة نحو قلعتكم قبل أن يتخطاكم أولاً، فلتنعموا بالسلام السرمديّ ولن نخذلكم أبداً.

انصرف الملك وولداه والقادة إلى اجتماعهم المغلق ليكملوا حديث الليلة الماضية.

قال الملك:

- كم لدينا الآن من المحاربين؟.

أجابه القائد "سيف" بضِيق :

- ما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة محارب بما فيهم المزارعون والحدادون.

قال الأمير "رميح" بصوت رخيم وقد احتدت قسماته:

- وأنا معي مائة محارب أو أكثر بقليل.

ران عليهم الصمت، وقف الملك، وشرع يروح ويجيء في ممر مغطَّى بسجادة حمراء طويلة بينما تهتز رأسه قليلاً وتدور عيناه كأنه يفكر في شيء ما، حتى شق عليهم عناء التفكير وقال:

- بهذا العدد الضئيل لن نصمد ضدهم طويلاً.

قال "سيف" بنبرة واثقة :

- ولكنَّ احتماءنا بأسوار القلعة يعطينا ميزة نسبية وتفوقاً عسكرياً بيِّناً، لا سيما بعد هزيمتهم المنكرة.

قال الملك بعدما اقترب من "سيف" ووضع يديه على كتفي الأخير:

- هذا صحيح، ولكن هل نسيت طيورهم البغيضة؟، ماذا سيوقفها بأجنحتها العملاقة؟

قال "رميح" بنظرة ثاقبة:

- ولكني أعتقد أن تلك القلادة التي تحطَّمَت قد أفقدتهم السيطرة على تلك الطيور.

- قد يكون لديهم قلادة أخرى.

خيّم على المكان صمت قاتل حين شرد كلٌّ منهم بذهنه يفكر في حلٍّ لتلك المحنة، التفت إليهم الملك ووضع كفيه على الطاولة ثم قال:

- لن نعتمد على الصدفة والحظ، وحتى إن فقدوا طيورهم فقد يأتون بمجانيق أو أيِّ أسلحة لعينةٍ، سوف نطلب العون.

قال "رميح" وقد ظهرت في نبرته قلة الحيلة واليأس:

- مِمَّن؟.

ثم أزاح بنظره نحو النافذة واستطرد:

- لقد أصبحت الأرض بالخارج كلها متشابهة، ولا أعتقد أن هناك مَن نجا من هؤلاء القوم.

جلس الملك أمامه وقال:

- فلنتمنَّ أن يكون هناك مَن نجا، وإلا سنكون الضحية الأخيرة، إن مملكة والد "كلنار" في أقصى الشمال وهناك احتمال كبير أن الأعداء لم يصلوا إليه، سيذهب "رميح" مع "كلنار" إلى مملكة الصقيع لطلب العون.

قال "فضاض" بصوت محتدٍّ:

- بل سأذهب معها أنا.

- لا ستذهب أنت إلى جزيرة "الرؤوس" لمقابلة "زعبل".

قال "رميح" بهدوءٍ بالغٍ:

- يمكنني أن أذهب إلى الجزيرة ويذهب أخي مع أميرته.

صرخ الملك غاضباً:

- إن "فضاض" ذهب من قبل إلى الجزيرة ويعرف طريقه، أمَّا أنت فلا.

قال "فضاض" :

- إذن فلتأخذ خريطة يا أخي.

احتقن وجه الملك واحتدَّتْ قسماته، أمر الجميع بالانصراف إلا ولديه ثم قال للأصغر:

- أيها الأبله، ألا ترى أن كل الأرض أصبحت كالصحراء الجرداء في ظلام دامس، كل الخرائط الآن أصبحت بلا قيمة.

أومأ كلاهما برأسه وانصرفا، أثناء خروجهما وضع "رميح" يده على كتف أخيه وهمس:

- لا تقلق يا أخي سأحميها حتى نفَسي الأخير.

التفت إليه "فضاض" واحتضنه بقوةٍ.

* * *

ذات يوم - لم أكن أعرف هل مساءً كان أم صباحاً؟ – كنتُ أجلس في هذا المكان البديع الذي طالما اعتدت الجلوس فيه مع "فضاض"،

بحيرة واسعة تحيطها النباتات الخضراء من أطرافها كأنها مكلفة بحراستها، وذلك الجبل البعيد الذي ما زال شامخاً حين انهار كل شيء، جلستُ على شاطئ البحيرة الصغير أسندُ ظهري إلى تلك الشجرة الضخمة المائلة.

أتذكَّر الأيام الماضية بكل وضوح حين كنا ننتظر لمراقبة عودة الشمس إلى عالمها الآخر، تقل حرارتها فتصبح دافئة، ويخفت ضوؤُها، فيحيل لونها برتقالياً يميل إلى الحمرة، وتلك الطيور الصغيرة التي تعشق التحليق أمام قرص الشمس فتصبح ظلالاً صغيرة تلوح في الأفق، ويتزين الكون في ذلك الوقت بثوب الشفق الأحمر بعدما يتبعثر ضوء الشمس في السماء.

كم أفتقد تلك اللحظات!.

فجأةً سمعت صوتاً مكتوماً ثم ظهر شبح من العدم يقول:

- فيمَ أنتِ هائمة يا عزيزتي؟.

التفتُّ إليه وقد تسارعت أنفاسي:

- لقد أفزعْتني.

خرجت منه ضحكات هادئة تبعتها ضحكاتي المرتجفة، ثم جلس بالجوار وغمغم بوجه بائس:

- ستذهبين إلى مملكة الصقيع.

ارتسمَتْ على وجهي آيات السعادة، ولكن لاحظت حزن "فضاض" :

- لِمَ أنتَ حزينٌ؟.

- لن أستطيع مرافقتك، ثم أخبرني ما آل إليه الاجتماع.

- لا تقلق، ستكون الأمور على ما يرام.

مسحت بيدي عبراته ثم أعطيته سلسلة متواضعة بها صورتي، وقلت له بتؤدةٍ:

- سأظلّ معكَ أينما كنتَ.

* * *

فضاض

كان وصف أخي دقيقاً جداً، ولكني لم أتوقع أنهم بتلك البشاعة، ثلاثة جنود فوق تلك الحيوانات الطويلة يتحركون أمامنا بمسافة صغيرة لا يحجب رؤيتنا عنهم إلا انخفاض البقعة التي نختبئ بها، يتحركون ببطء، وينقبون حولهم في كل مكان كأنهم يبحثون عن شيء ما.

أيقظت صديقيَّ برفق مُحذِّراً إياهما، وقد وضعت سبابتي على فمي، ثم حركتها نحو ثلاثة ظلال ضخمة فنهضا خائفَيْن.

استلقيت معهما خلف ذلك الساتر الترابي الصغير وقد اختفت أجسادنا تماماً خلفه بينما ارتفعت رقابنا قليلاً لمراقبتهم في سكون.

بعد برهة جاءهم جندي آخر من أتباعهم يلهث كالكلب الذي يحمله، قال للقائد:

- هل وجدت الخريطة؟

- لا، ما زلنا نبحث عنها.

قال محذراً بوجه حازم:

- إن الزعيم يريدها بأسرع وقت ممكن.

همّ الجندي بالرحيل، ولكنه توقف فجأة كأنه نسي شيئاً، والتفت إلى قائده وقال:

- المرة القادمة سيرسل لك مَن يأتيه برأسك.

استشاط قائدهم غضباً وصار يوبخ جنوده ويعنفهم:

- إذا لم تظهر الخريطة قبل غياب النجوم فسأدق عنقيكما.

وقف الجنديان أمامه خائفَيْن يكادان يسقطان على وجهيهما قبل أن يصرخ فيهما مقتربا برأسه الضخم من رأسيهما.

- إلامَ تنظران أيها اللعينان؟.

تصلَّب الاثنان في الأرض لا يحركان ساكناً فصرخ مرة أخرى وقد تطاير اللعاب من بين شدقيه:

- انطلقا أيتها الحثالة.

ركض الجنديان القذران في اتجاه عكس الذي سلكه قائدهما الأبله.

نهض ثلاثتنا من تلك الجلسة المرهقة، قلتُ لهما غير مستوعب لما سمعت:

- الكل يبحث عن ذلك الكنز، إذنْ ذلك الجيش يجول الأرض بحثاً عن كنوزها؟!

- لا أعلم سموك، ولكن لِمَ يقتلون كل أعدائهم؟، إنها عمليات إبادة جماعية للجنس البشري، ولا أعتقد أنهم مجرد لصوص طماعين يسعون خلف الكنوز.

- وكذلك اختفت الشمس مع ظهورهم بتلك الحيوانات كل تلك الأمور لا تمتُّ بصلة للكنوز والذهب والفضة، ماذا سيفعل أولئك الشياطين بالذهب والماس؟

قال "نمير" وهو يمرر عينيه بأطرافها نحونا:

- إلا إذا لم يكن هذا الكنز مجرد أكوام من الذهب والمعادن النفيسة.

- هذا صحيح، إنه أمر مربكٌ.

قال "أسداد" بثقة غير مسبوقة:

- الشخص الوحيد الذي سيدلنا وينقذنا من تلك الحيرة هو "زعبل" يا سيدي.

أخرجت الخريطة التي وجدناها؛ لأطمئن أنها ما زالت بحوزتنا، وأعدت النظر في خطوطها المتعرجة التي لا توحي بأى شيء:

- لا بد أن نحافظ عليها جيداً حتى نصل إلى "زعبل" علَّه يرشدنا إلى شيء مفيد.

لم نستطع أن نستريح قليلاً وها نحن نسير مرة أخرى في الظلام المدقع باحثين عن أى بقعة مائية أو صوت نهر جارٍ؛ ليدلنا على وجهتنا إلى "زعبل" .

بعد فتره جذبني "أسداد" من ذراعي، ثم قال وقد بدت عليه آيات البهجة:

- سيدي، انظر لتلك الغربان هناك، لا بد أنها تحوم حول الماء، لقد وصلنا يا سيدي.

لم أرَ طوال حياتي مَن هو أسرع من صديقي "أسداد" في أيّ شيء، فهو الأسرع دائماً في كل شيء، في فرحه وحزنه وانفعالاته، وما أشد سرعته في اتخاذ قراراته!.

انطلقنا نحو بقعة أمامنا تحوم فوقها مجموعة من الغربان، وكلما اقتربنا منها ازداد ذلك الصوت المزعج حتى كاد يخترق آذاننا ويتلفها،

صوت نعيق الغربان التي تصيح بقوة كأننا نقتحم منزلها لنسرق أبناءها، يالها من طيور مزعجة بلا عقل!.

فجأة وجدت نفسي أنظر لمشهد لم أرَ يوماً أشد قسوة منه، منظر مفزع تبين أن تلك الغربان لم تكن تصيح خائفةً منا، ولكنها وجدت وليمة طازجة وغنيمة كبرى، أوتاد مثبتة في الأرض تحمل رؤوساً بشريةً تسيل منها الدماء، مرصوصة بنظام في مربع متساوي الأضلاع ويتقدمهم وتد طويل نسبياً عن إخوته وفوقه رأس ما زال محتفظاً بخوذته.

* * *

كُلنار

جهز الأمير "رميح" جيشه الصغير - مائة رجلٍ –، وكذلك حزم الأمير "فضاض" أمتعته، اقترب من أخيه واحتضنه بقوةٍ كأنه لن يراه ثانيةً، ثم ودعني بكلمات مبهمة، وانطلق فوق حصانه الأصهب ناعم الشعر وتبعه رفيقاه المخلصان "أسداد" و"نمير" .

ركبتُ عربة بنيةً واسعةً يجرها أربعة خيول سمراء بها نافذتان ومقاعد وثيرة، انطلقت العربة وسط فرسان الجيش، وكان الأمير يطمئن عليَّ من حين لآخر، بعد فتره أغلقت النافذة، وغرقت في سبات عميق.

استيقظت فجأةً إثر أصوات عالية كنتُ أعرفها جيداً، صوت صهيل الخيول وصليل الأسلحة، وثبتُ من مكاني قبل أن أفتح النافذة، فوجدت العربة بمفردها وكل الفرسان قد تقدموا عدة أمتار، ويبدو أنهم في خضمّ معركة ضروس.

لم تمر عدة دقائق حتى وجدت الأمير "رميح" قادماً بسرعة، وقال لى متلهفاً:

- الأعداء قد باغتونا، لابد أن تهربي.

هربت الحروف والكلمات من رأسي وقد حاصرني الخوف فقلت:

- ولكن .. أنتم .. ستنج...

- لا وقت للكلام سمو الأميرة، امتطي حصاني واتجهي بأقصى سرعة إلى مملكة الصقيع، وإذا نجونا منهم، فسأتبعك.

فرَّت من عيني بعض العَبرات:

- أتمنى أن تنجوا جميعاً.

- لا تقلقي، سموّك.

امتطيت حصانه الأبيض، وانطلقت من جهة أخرى قد وصفها لي، وعندما ابتعدتُ كفايةً اختبأت خلف إحدى الأشجار، وعكفت أراقبهم في خوف.

كانت المعركة شرسة، وأعداد الأعداء في تزايد مستمر، صرخ الأمير في جنوده ببعض الكلمات الغاضبة؛ ليدفعهم نحو حتفهم، تراصت حولهم تلك الكائنات ذات الأعين المشعة، كأنها تقطر دماً - في دائرة

واسعة، تلاحم معهم الفرسان بقوة وشجاعة لا يبديها أحد في مثل تلك المواقف، بينما انطلق الأمير مستغلاً بطء حركتهم فكان يكرّ ويفرّ، وأمر فرسانه بالمثل.

تمكن الأمير من قطع عدد قليل من رؤوس حيواناتهم، وكذلك فعل فرسانه بينما كانت تلك الحيوانات تخطو بأقدامها الضخمة فوق الفرسان فتسوّيهم بالأرض هُم وخيولهم، سهام الأعداء تتطاير في الهواء بدقة تعرف وجهتها جيداً فتصيب الرجال في أعناقهم وأجسادهم، ويتمكن آخرون من تفاديها بالحركة أو بتوجيه الدروع أمام أوجههم.

اقترب أحد الفرسان من حيوانٍ هجينٍ، وقفز من فوق حصانه ليمسك بلجام ذلك الحيوان فتمكن من الصعود فوق ظهره وقتل الجنديين، ثم جلس مكان أحدهما وقاد الحيوان إلى الخلف ناحية جيش العدو الذي احتشدت جنوده خلف المعركة بعدة أمتار كأنهم ينتظرون شيئاً ما، استطاع أن يقتل بعضهم قبل أن يقطعوا القوائم الأمامية للحيوان فسقط على وجهه ولقى راكبه حتفه المريع.

لم يتبقَّ مع الأمير سوى عشرة فرسان أو خمسة عشر فارساً، بينما كانت أعداد تلك الحيوانات تبدو للوهلة الأولى كما هى كأنهم يتوالدون

في المعركة، عزم الأمير على خطة ما وقد أخرج الفرسان سلسلة حديدية طويلة، وقفوا جميعاً في خط أفقي نصفهم في الجهة اليمنى والنصف الآخر في اليسرى تاركين فراغاً في المنتصف، وأمسك الجميع بأطراف السلسلة ثم تقدموا – بعد سماع صياح الأمير- بأقصى سرعة كأنهم في سباق للخيل، تقدموا إزاء الحيوانات الهجينة المتزاحمة، فاشتبكت السلسلة بأرجلهم وظلوا يتراجعون للخلف محاولين الصمود حتى سقطوا أخيراً بينما تمكن الآخرون في الاتجاه المعاكس من قتل بعض الفرسان بسهامهم الدقيقة.

لم تلبث تلك الكائنات المظلمة أن سقطت حتى وثب الأمير ورجاله تاركين خيولهم، واتخذوا تلك الحيوانات خيولاً لهم بعدما قتلوا ركابها، استقر الجميع فوق تلك الحيوانات، وبدأوا يضربونهم فوق رؤوسهم؛ لينهضوا، تقدموا بسبعة حيوانات نحو أولئك الجنود بالخلف، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، ولكن ظهر كيان آخر من بين طيات الليل فوق حصانه الأسود كان يلبس عباءةً سوداء تغطي جسده ووجهه.

وما إن ظهر ذلك الكيان حتى انحنى جنوده جميعهم على ركبهم، وخرت الحيوانات على أنوفها تحتضن الأرض فسقط الأمير وسط تلك الجموع الغفيرة حتى اختفت رؤيته بعيداً عن ناظري.

توقف ذلك الكيان - الذي يشبه شبحاً هرب من بوابات الجحيم - بعدما جذب لجام حصانه ففتح الأخير فمه كاشفاً عن أنياب لا يمتلكها إلا الحيوانات المفترسة كالأسود وغيرها، وتجمع في فمه ما يشبه الضباب المتراكم الذي يحجب الرؤية فانبثق من الداخل كالدخان عندما ينبعث من فوهة أفران الخبازين.

انحنى الحصان فوق ركبتيه الأماميتين كما تبرك الإبل، فنزل كيان يشبه قطعة من الليل ولكن أشد ظلمة، خرج منه صوت غريب أقرب لفحيح أفعى على وشك الانقضاض على فريستها، وبالطبع فهمه جنوده، وتراصوا على جانبين من الطريق تاركين فراغاً يجمع بين الأمير "رميح" وزعيمهم الشيطاني.

لا أدري لمَ قتل جنود العدو فرسان الأمير وتركوا الأمير حياً؟، ولكن شعرت بخوف شديد، وازدادت ضربات قلبي سرعةً وقوةً حتى ظننته سيخرج من مكانه، انهمرت دموعي فوق جبيني بينما أراقب مصرع الأمير، لو علم الأمير "فضاض" بمقتل أخيه لسقط هو الآخر.

اقترب ذلك الكيان من الأمير وأسقط العباءة السوداء، فظهر وجهه الأسود البشع، لديه قرنان كما للثور ولكنهما ممتدان أمامه وليس لأعلى، مجرد إن ظهر وجهه طارت الغربان من فوق الأشجار بنعيقها المزعج ولونها الفاحم الذي يبعث التشاؤم، وهبت عاصفة كأنها نذير من الطبيعة.

لم يلبث الشبح أن أشهر سيفه الذي يشع ظلاماً حتى صاح الجنود من حوله مرددين كلمة واحده "زاعر"، "زاعر" .

أشهر الأمير سيفه هو الآخر وبدأت المبارزة بعد أن دار بينهما حوار قصير، لم أسمع منه إلا كلمات متقطعة مثل "قتلت أخي" و كلمة "انتقام"، أدركت أنه أخو الشبح الآخر الذي قتله الأمير في المعركة السابقة، ولكن هذا يبدو أقوى وأشد ظلاماً حتى من الليل.

التقى سيفاهما والتحما، دفعه الأمير للخلف بقوة، فلم يتحرك خطوةً واحدة كأنه جبل راسخ، رفع الشبح سيفه في زهو وتفاخر، فانتشرت الضحكات الساخرة بين جنوده، رفع الأمير سيفه مرة أخرى، وعزم على زرعه في قلب خصمه، ولكن تفاداها الأخير، وأسقطه بقدمه على الأرض.

لم يكن الأمير ولا أيّ أحد ندَّاً لمثل تلك القوة الظلامية، نهض الأمير ثانيةً وشرع يناوشه بمهارة حتى استطاع أن يقطع كف يده اليسرى، غضب الشبح حتى انتفخ وجهه، أمسك الأمير من رقبته بيد واحدة كأنه عصا صغيرة ملقاة على الطريق ثم رأيت ذراعه الأخرى قد خرج منه سيفٌ مكان يده المبتورة فدق به عنق الأمير، وألقاه على الأرض.

شعرت بوخزة قاسية في صدري تكاد تحطم ضلوعه، والتهب وجهي بحرارة لم أعهدها من قبل، احتنق حلقي فلم أستطع حتى أن أزدرد ريقي، فسقطت على ركبتي وأسندت ظهري على الشجرة.

أمر الزاعر جنوده بشيء، فوجدتهم يقطعون رؤوس الفرسان جميعاً ثم التقطوا رأس الأمير المقطوع، وبدأوا يثبتون أخشاباً في الأرض مدببة من الأعلى، وشرعوا يدقون الرؤوس فوق تلك الأوتاد.

لم أستطع أن أمنع صرخةً خرجت مني بعفوية من هول المنظر وبشاعته، لفتت صرختي انتباه ذلك الكيان القذر ولكنه لم يرَني، فأمر بعض جنوده بملاحقة مصدر الصوت وإحضاره، بينما صاح في باقي الجنود للتوجه إلى المعركة.

* * *

فضاض

جال بخاطري هاجس مقيتٌ لم أتمكن من استيعابه أو لا أمتلك القوة والقدرة على تصديقه أو مجرد التفكير به، وثبتُ من فوق الخيل مسرعاً ورحتُ أهرول نحو تلك العصيّ بسرعة، وقلبي يخفق كما لم يخفق من قبل، لا أشعر بقدمي ولا أرى شيئاً أو أسمع، كأنني دخلت عالماً آخر لا يملك مفاتيحه إلا عقلي، أصبحت كطيف هائم لا أدري هل أخطو على الأرض أم ألامس الهواء كالأرواح التائهة؟، رعشة شديدة اقتحمت كل أطرافي وقشعريرة مريرة ألهبَت كل شعرة في جسدي، تلك الخوذة اللامعة أعرفها جيداً، أى شيء في العالم أهون علىّ من حرماني من أخي؟.

كل خطوة أخطو بها وتقربني من الحقيقة تشبه سكيناً تنخر جسدي، سكاكين تمزق أحشائى بلا طعنات، ودماء تسيل دون أن تترك أثراً، أشعر بروحي تُنزع من بين ضلوعي ولا أرى مَن يسرقها ولا أقدر على إيقافه.

أزلت الخوذة فرأيت أكثر وجه أحببته يوماً، وجه دوماً ما أسعدني فرحُه وسعادته، وأحزنني عبوسه وضيقته.

سالت الدموع في مجاريها بلا توقف صاحبَتْها حشرجة مؤلمة في صدري، وأنين لا يفارقها.

احتضنت ذلك الرأس بقوة، ورفعت وجهي للسماء، وصرخت بقوةٍ برزتْ معها عروق رقبتي حتى كادت تتركها وترحل:

- لاااااااااا !!.

بدأت أتحدث مع الرأس كالمجنون غير آبهٍ بما حولي ولا أرى إلا رأس أخي، لا أدري بما تفوَّهت في تلك اللحظات ولكن أتذكر بعض الكلمات:

- لا تتركني يا أخي، لا يمكن أن تكون تلك هى نهاية الطريق ..

بعد وقت لا أدري كُنهَه بدأت دموعي تجف وشرعت أعود ثانيةً إلى الواقع رويداً رويداً، وضعت الرأس في قطعة قماش بجانبي على الحصان وقد أصبحت عروقي كأقدار الزيت تغلي بداخلها دمائى، لا أفكر سوى في شيء واحد، الانتقام، سوف أمزق هؤلاء الملاعين إرباً، وأصلب أجسادهم البغيضة للغربان تنخر فيها.

سمعت صوتاً مكتوماً قادماً من بعيد يستنجد باسمي، "أسداد" و "نمير" أين هما؟، ركبت الحصان مسرعاً وتتبعت صوتهما.

الجنديان القذران اللذان رأيناهما في وقت سابق من تلك الليلة يحاصران صديقيَّ وقد ترجَّلا ولا أرى حصانيهما، التقطت قوسي وسحبت وتره مصوّباً سهماً حاداً نحو رأس أحدهما، ثم تركت الوتر فانطلق السهم يحمل قدراً ملائماً من الكراهية و رغبة الانتقام.

ثورة عارمة وطاقة رهيبة تفجرت داخلي ولن تهدأ أو تقل حدتها حتى يخرّ أولئك الملاعين جميعهم صرعى، رأيت السهم وهو يتحرك ببطء يشق الهواء حتى رشق في رأس أحدهما فسقط من فوق كلبه الذي جذبت انتباهه فجاء يركض نحوي.

أشهرت سيفي اللامع ورحتُ ألوّح به في الهواء استعراضاً واستعداداً.

ركضت أنا الآخر نحو الكلب وقبل أن أقترب منه بعدة أقدام ملتُ قليلاً بالحصان، وانحنيت بجسدي ثم قطعت ساقيه النحيفتين فخر على الأرض يئن ويموء كالقطط الصغيره، انطلقت نحو الآخر واشتبكت معه في معركة بالسيوف كثرت فيها الطعنات والمباغتات حتى تمكنت من

إسقاط سيفه فبدأ يستغيث ويطلب الرحمة ولكني أطحت برأسه دون أن أستمع لأى كلمة.

مرر لي "نمير" قطعة قماش فمسحت وجهي الذي امتلأ بدمائهم الملوثة، جاء "أسداد" ووضع يده فوق كتفي ثم تبعه "نمير" وقالا معاً بحزن ظاهر:

- نأسف على خسارتك يا سمو الأمير.

لم أصدر أيّ كلمة، ولكن اكتفيت بتحريك رأسي وكادت عيناي تمطران، ولكن تماسكت وقلت لهما بصوت مصحوب بحشرجة فاضحة:

- أين حصاناكما؟.

- في أمان يا سيدي، لقد تركناهما خلفنا حين سمعنا أصواتاً بالجوار فترجلنا و بحثنا بحذر عن مصدر الصوت.

- متى حدث كل ذلك؟.

- لقد كنتَ حزيناً يا سيدي ولم تسمع نداءنا.

- نعم، ماذا حدث بعد ذلك؟.

- سمعت أحدهما يقول للآخر: إنه وجد خريطة ولكن لا يفهم منها شيئاً.

قال "أسداد" وقد ضاقت عيناه:

- حينها أدركت أن تلك الخريطة من جزأين وأخبرت "نمير".

قال "نمير" بعدما استقرت عيناه عليَّ:

- قلت له: إذنْ لا بد أن نحصل على الجزء الثاني من الخريطة.

- انطلقنا نحوهما بدون تفكير وحاولنا هزيمتهما، ولكن حاصرانا ولم نستطع الفرار من تلك الحيوانات المرعبة.

قلتُ لهما بعدما رفعت كفّ يدي في إشارة بسيطة للتوقف عن السرد:

- حسناً، أنا أعرف باقي القصة.

ران الصمت علينا لبرهة قبل أن أستطرد:

- إذن أين الجزء الآخر من الخريطة؟.

- مع الجندي الذي أسقطتَه بالسهم سموك.

قلت لنمير:

- أحضرها يا صديقي.

جاء "نمير" ومعه قطعة ورقية يعبث بها الهواء فتتمايل وتنزلق من بين أصابعه، أخذتها منه وحاولت أن ألصقها بأختها فإذا بالورقتين قد تركتا يدي، وارتفعتا قليلاً في الهواء ثم خرج منها ضوء قويٌّ أصاب أعيننا، فأغلقت أهدابها تلقائياً، فتحت عينيّ بصعوبة فوجدت الورقتين قد صارتا ورقة واحدة، وبدأَتْ تترنح في الهواء حتى استقرت بين يديّ، وجدتها خريطة واضحة المعالم، وقد تحولت الطرق المتعرجة والخطوط عديمة الملامح إلى طرق واضحة سليمة تنتهى عند جبل قمته حمراء اللون، وفي ظهر الورقة ظهرت بعض الأشكال الغريبة لأقمار صغيرة بالحبر الأسود كانت تُرسم أمام أعيننا كأنّ شيطاناً يعبث معنا.

* * *

كُلنار

حملني حصان الأمير وانطلقتُ به بسرعه مستغلةً بطء حركة حيواناتهم.

شعرت بدوار وألمٍ شديد في رأسي بعدما اختلطت به الأفكار الحزينة والخوف من مصيري المرعب، أخاف على الأمير "فضاض" من رؤية ذلك المنظر المفزع لما علمته من حبه الشديد لأخيه، وما أشدَّ حزني أيضاً عليه لقد فقدَتْ المملكة رجلاً عادلاً وفارساً قوياً وقائداً صنديداً خبيراً بأمور الحرب، وكيف ستَبْلى القلعة التي على وشك أن تستقبل جيشاً عرمرماً أمام بواباتها جيش مظلم تفوح منه رائحة الموت لا يأخذ أسرى ولا أظنه يرحم النساء أو الأطفال؟.

وماذا عن طريقي المجهول إلى مملكة أبي؟، لقد ذهبت مراراً وتكراراً إلى المملكة ذهاباً وإياباً حتى طُبعت خريطة الطريق في عقلي ولكن الآن مَن سيرشدني في ذلك الظلام الدامس المرصَّع بالضباب المرعب على جنباته، أسير نحو المجهول بخطى حصاني الحزين والموت يلاحقني.

قضيتُ وقتاً طويلاً في الهرب حتى أصابني النَّصَب وكذلك الحصان، توقفت بجانب إحدى الأشجار الجافة ذات الأفرع الممتدة أمامها بشكل مريب.

كنت أفكر في "فضاض" قد يكون الآن في مأزق هو الآخر وبحاجة إلى النجدة، سرق انتباهى شيء في السماء لا أدري هل هو حقيقة أم مجرد أشكال رسمها عقلي الخائف؟.

وجدتُ في السماء سهماً أبيض قادماً من بعيد يشق الظلام ويُبعده عن طريقه فيحيله إلى الأطراف وقد انبثق منه ضوء خافت كأنَّ القمر قد حظي بجنديٍّ سريٍّ يساعده ويؤنس وحدته في ذلك الدوام الطويل.

أتى ذلك السهم وتوقف في السماء فوق الشجرة التي أستند عليها، فجأة سمعت أصواتاً عالية لم تكن إلا أصوات أقدام ضخمة تطوف الأرض مقتربةً مني، امتطيت الحصان وبدأت أركض، بينما أنظر إلى السماء فوجدت السهم قد بدأ يتحرك هو الآخر، اعتقدت أن ذلك السهم جاء بطريقة ما ليساعدني ويرشدني إلى الطريق الصحيح.

قررت أن أتبع تعرجات وانحناءات ذلك الشعاع المنير، ولِمَ لا فأنا في كل الأحوال تائهة لا أعرف وجهتي؟.

كنتُ أنظر كثيراً إلى السماء؛ لأرى الخريطة التي جاءتني من العدم وأقف أحياناً حين أجد أنني سرت في اتجاه خاطئ فأعود أدراجي؛ ممَّا تسبب في إبطاء حركتي ولحاق الأعداء بي حتى رأيت تلك الحيوانات البشعة عن قربٍ لأول مرةٍ، رؤيتهم فقط قد تتسبب في هلاك المرء فتلك التفاصيل المرعبة ليست طبيعيةً وليست متسقةً.

بدأت سهامهم تتدفق نحوي فكنت أسمع صوتها كأنه صرير رياح عاتية، انطلقت بأقصى سرعة مهرولةً لا أدري أين أذهب؟، ولم أعد أنظر إلى السماء حتى ظهر أمامي بعيداً نقطةٌ بيضاء ناصعة؛ فكانت بمثابة المنارة التي تهتدي بها السفن الهائمة في غيابات الظلام.

أسرعت في ذلك الاتجاه حيث الأمل يتقدمني، ومن خلفي أعداء يتربصون بي حتى اقتربت منها، نعم أعرفها جيداً، إنّها مملكتي، مملكة الصقيع.

لأول مرة منذ أشهر عديدة أرى الشمس مرة أخرى وأشعر بحرارتها الشديدة على جبيني، وثبت من فوق الحصان، وارتميت في أحضان الثلج، رفعت وجهي نحو السماء مغمضةً عيني أستقبل تلك الأشعة الملتهبة التي افتقدتها بشدةٍ.

كدت أنسى الأعداء الذين أتوا من خلفي مسرعين حتى فتحت عينيّ بسرعة إثر أصواتهم المفزعة، ما إن اقتربوا من الجليد حتى انهاروا وشرعوا يصرخون كأنهم يُعذَّبون في أغوار السعير، تتراجع حيواناتهم المفترسة لا تجرؤ أن تخطو خطوةً واحدة على الجليد، وصاروا يركضون للخلف كحفنة من الماشية التي رأت ذئباً.

هرب الأعداء، وعلَتْ صرخاتهم كأن في الثلج شيئاً يرعبهم، كانت المملكة تشبه نيران المشاعل التي تضيء القلعة في الظلام، عالم مختلف كأن لعنات ذلك الجيش المظلم ذابت فوق الثلوج فلم تستطع أن تنفذ إلى تلك البقعة المضيئة.

عادت إلى عقلي خريطة المملكة واضحة لا تشوبها شائبة؛ فهى كما هي لم تتغير منذ تركتها.

سلكت طريقاً ممهداً لطالما اعتدت اللعب فيه مع أصدقائي في طفولتي، طريقاً تحفُّه الأشجار المكسوَّة بالثلوج على جانبيه، والثلوج قد تجمعت حول تلك الأشجار وبجانبها بعض الصخور التي تمنع انزلاقها.

يبدو أن الحصان قد استعاد نشاطه بعد أن رأى الشمس مرة أخرى فشرع يركض حتى رأيت قصر أبي، ذلك القصر البديع الذي بات مَطْمعاً لعمالقة الغابة ولكن جنود أبي وأسلحتهم الفتاكة حالَت بينهم وبين مطامعهم.

قصر من الجليد يلمع تحت أشعة الشمس كالأحجار الكريمة التي تسرق ناظريك وتتمنى أن تحوزها، مشيَّد فوق تلة جليدية كأنه جزء منها، ولكن أخذ شكلاً مخالفاً، والسحب البيضاء الضبابية تتراكم حول قممه العالية فأضفَتْ عليه مزيداً من الجمال، تحيط به الجبال الجليدية البيضاء من كل اتجاه، وأمامه قنوات مائية متفرقه، إن هذا القصر لهو السحر بعينه.

أسرعت نحو الطرق المتعرجة بداخل تلك التلة حتى وصلت إلى الممر المكتظ بالجنود، وما إن رآني قائدهم حتى حيَّاني بحفاوة، وفُتحت البوابة على مصراعيها، توجهت مسرعة نحو أبي الذي كان مجتمعاً بمستشاريه كعادته، فاجأتْه رؤيتي فتحول وجهه الصارم الحازم إلى وجه طفل صغير يركض نحو أمه، انفضّ المجلس فوراً وكان المستشارون يلقون عليَّ تحياتهم الوَدُوْد التي افتقدتها.

احتضنَني أبي بقوة حتى كاد يحطم ضلوعي بينما انهمرت دموعنا الدافئة، بعد قليل من التأمل في وجهي الذي تغير قليلاً قال أبي متلهفاً:

- فلنذهب لأمك، لقد انتظرتك طويلاً.

استقبلتْني أمي الحنون بجرعة حنان أخرى فريدة من نوعها، فارتميت في أحضانها التي اعتدت سكونها كلما شعرت بالخوف أو الاضطراب، كادت تلك اللحظات الفريدة تنسيني ما جئت لأجله.

حاولت إخبارهما بما حدث في الخارج، ولكن أصرَّا على أن أرتاح أولاً من عناء الطريق ، اصطحبَتْني أمي إلى غرفتي التي وجدتها كما هى لم تطأها ذرة غبار واحدة، ولم تختفِ منها أىّ تفصيلة من تفاصيلها العديدة.

قالت أمي بينما يداها العطوفتان تتحسسان وجهي:

- لقد افتقدتك كثيراً .

لمعتْ عيناها بعَبرات هاربة، فمسحتها وقلت لها في حنان:

- لقد افتقدتك للغاية يا أمي، وكل يوم كنت أتذكر لعبك معي وأنا صغيرة وقصصك التي تسردينها عليّ قبل نومي و...

احتضنتْني مرّة أخرى قبل أن تنصرف وأخبرتْني أن أرتاح جيداً؛ لأنَّ غداً سيكون يوماً مرهقاً ومليئاً بالأسئلة.

خرجت إلى الشرفة وكانت محاطة بسور انبثقت منه بعض الأوعية الكريستالية التي تضم زهور الجوري متعددة الألوان تفوح منها أنقى وأعذب الروائح التي تطيب لها الأنفس، جلستُ أراقب تلك المسطحات المائية والجبال من حولها، لابد أن هناك قُوَى خفيَّةً تحمي هذه المملكة البديعة من شرور أولئك القوم الفجار.

ضج رأسي بالعديد من الأسئلة التي لا أجد لها إجابة مقنعة:

- لماذا خاف الأعداء عندما وطأت أقدامهم على الجليد؟.

- لماذا رحلت الشمس من كل البقاع وظلت هنا شامخة الرأس؟.

- ترى ماذا حل بفضاض وصديقيه؟.

- هل ستصمد القلعة بعشرات المقاتلين في مواجهة تلك الحشود المظلمة؟.

شعرت بألم شديد في رأسي فدخلت الغرفة، وتلقّاني فراشي المريح بوسائده الوثيره المحشوة بريش النعام، واستسلمت جفوني لنوم عميق لم تنتشلْني منه إلا زقزقة العصافير في الصباح التالي.

نهضتُ أتلكّأ فوق السرير، ورأيت ضوء الشمس قد اخترق الشرفة وألقى بحرارته على أرضية الغرفة، ألقيت بعض الماء على وجهي؛ ليستعيد نشاطه ونضارته ثم توجهت إلى الشرفة؛ لأراقب تلك الطيور الجميلة كما اعتدت في الماضي، التقطت بعض الحبوب، ونثرتها على أحد جوانب السور فتجمعتْ حولها الطيور ... طيور فائقة الجمال ذات ألوان متدرجة يطغى عليها الأصفر والأحمر وتصدر أصواتاً كأنها معزوفات موسيقية فريدة.

عدتُ إلى الغرفة حزينة بعدما تذكرت " فضاض " عندما كنا نراقب الطيور معاً في أبهاء القلعة، وجدت ورقةً مطويّة بجانب الفراش فالتقطتها وشرعت في قراءتها، كانت رسالة من أبي يقول: لا تخبري والدتك بما حدث خارج المملكة.

شردت بنظري نحو الشرفة، جالَتْ وصالَتْ في رأسي العديد من الأسئلة المربكة فازدادت أسئلتي التي بلا إجابات.

- متى علم أبي بما حدث؟ وإذا كان يعرف فلِمَ لم يقدم العون للآخرين؟.

- والأهم من ذلك لِمَ لم يحاول إنقاذي وأنا ابنته؟.

- ولِمَ لا يريد إخبار أمي؟.

قاطعتني طرقات خافتة على باب الغرفة واقتحمت عزلتي، فتحت الباب فظهرت خلفه فتاة رقيقة في أواخر عقدها الثاني، كانت مطأطأة الرأس في خجل.

قالت بصوت مبحوح:

- الإفطار جاهز يا مولاتي، سيدي الملك وسيدتي الملكة ينتظرانك على المائدة.

رفعتُ رأسها بلطفٍ قبل أن أصيح:

- "تارا" ؟!

ثم احتضنتها دون تفكير:

- ألا تذكرينني أيتها الماكرة؟

قالَتْ في حذر:

- العفو يا مولاتي، لقد خشيتُ ألا تتذكريني.

قلت بلهجة مستنكرة:

- وهل يمكنني أن أنسي صديقة طفولتي؟!

قاطعتنا نداءات أمي فودعت "تارا" وأخبرتُها أنني سألتقي بها قريباً.

ذهبت إلى غرفة الطعام، وكانت غرفة ضخمة تتدلى من سقفها عدة نجفات موزعة باتساق، وبمسافات عادلة ذات ضوء بهيج، واستقبلت في منتصفها مائدة عظيمة فوقها بعض الشمعدانات متعددة الأطراف تحمل شموعاً تُضفي سِحراً خاصاً يمتزج بهواء الغرفة.

جلستُ بجانب أمي التي أشارتْ لي بيدها نحو الكرسيّ المجاور لها بعد أن ألقيتُ التحية عليها وعلى أبي.

كانت المائدة عامرةً بكل أنواع الطعام، لم أستطع أن أمنع نفسي عن الأكل بشراهةٍ بعد التعب والإرهاق الشديد في الأيام السابقة.

وبعد انتهاء تلك الوجبة الدَّسمة اجتمعتُ مع أمي وأبي في غرفةٍ أخرى بها مِدفأة في أحد أركانها.

كانت أمي تنظر لي بلهفة، وقالت:

- أخبريني يا حبيبتي، لِمَ جئتِ بهذا الشكل المريب ولم يجئْ معك "فضاض"؟.

أردت إخبارها ولكن لاحظت نظرات أبي الثاقبة الناهية، أعلم تلك النظرات جيداً، لطالما رمقني بها العديد من المرات فعلمْتُ فحواها وكُنْهَها.

قلت لأمي بلهجةٍ مرتبكةٍ:

- إنهم يحتفلون بعيد النصر لقلعتِهم، وأنا أردت الاطمئنان عليكما.

- هل حددتما ميعاد زواجكما؟.

قلت بنبرة مرتعشة:

- نَعَمْ ... نَعَمْ، قريباً جداً.

قلتُ لأبي لائمة:

- ألا تخرجون من المملكة؛ لتتفقدوا بالجوار وتحرسوا حدودكم؟

نظر لي أبي نظرةً قاسية، وقال بصوت رخيم:

- نعَم، طبعاً.

ثم نظر لأمي التي استنكرت تلك القسوة وأردف بلينٍ مصطنعٍ:

- جيوش المملكة لا تكل ولا تمل من حراسة حدود مملكتنا والحفاظ على أمن شعبها.

انصرف أبي بعدما رمقني بنظرة محذرة.

قلت لأمي:

- لِمَ هو حزين هكذا؟

- لا يا صغيرتي، إنه فقط أصبح غليظاً هكذا منذ فترة.

- لماذا؟.

- لا أعلم، إنه لا يخبرني بشيء على الإطلاق.

ران الصمت علينا لبرهة قضتها أمي في تأمل وجهي، ثم قالت لي بلهفة:

- تعالي؛ لنأخذ جولة في المملكة، لا بد أنكِ افتقدتِها، سيفرح أهل المملكة جداً، ولربما ينسونَ ما فعله أبوكِ.

قلتُ لها والحيرة تكاد تقتلني:

- ماذا فعل أبي؟.

تعكر صفو أمي، واحتدّت قسماتها:

- سأخبركِ لاحقاً.

* * *

فضاض

قلتُ لصديقيَّ بينما تكاد الدهشة والحيرة تقتلاننا جميعاً وقد ترددتُ بين رمي الورقة من يدي والاحتفاظ بها:

- ما هذا الهراء؟.

قال "أسداد" :

-لا بد أنها تعليمات أو رموز غريبة، مَن يفكّ شفرتها يجد الكنز.

احتفظت بالخريطة، وازدادت رغبتنا في الوصول إلى "زعبل" للحصول على إجابات كثيرة لأسئلة تراكمَت في عقولنا خلال الرحلة.

بدأنا نسلك طرقاً لا نراها ولا نعلم وجهتها، ولكن أحاطنا الأمل وتمسكنا به حتى سمعنا صوتاً قادماً من بعيد أمامنا، صوت جريان شيء ولكنه لا يقترب منا، قلت لصديقيَّ:

- لابد أنه صوت الماء.

فرح صديقاي بشدة، واحتضنا بعضهما بقوة، قلتُ بينما يهرول بي الحصان:

- إنه الصوت الذي نبحث عنه، هيا.

توقفنا أمام نهر جار يعكس ضوء القمر في مياهه العذبة، قلتُ قبل أن أشير بيدي نحو الأشجار المحيطة بنا:

- اجمعوا بعض الأخشاب؛ لنصنع قارباً.

فتح "أسداد" فاه واسعاً فجأةً بعدما أصابته الثوباء:

- ألا يمكننا الاستراحة حتى الغد؟

هتفتُ تلقائياً بدون قصد:

- نحن لا نملك الوقت.

هدأت قليلا ثم أردفت:

- لابد أن نصل هناك بأسرع وقت، إنّ سكان القلعة في أمسِّ الحاجة للمساعدة في أقرب وقت ممكن.

ربطنا الخيل في إحدى الأشجار ثم شرعنا جميعاً نجمع الأخشاب، وربطناها معاً بقوة، التقطت زوجاً من الأخشاب يشبه إلى حد ما مجداف المركب، وقام "نمير" بجمع بعض الماء في قدور.

ألقينا المركب في النهر، وركبناه فساقه التيار فانطلقنا دون الحاجة لتلك المجاديف تاركين خلفنا ثلاثة خيول.

كان الطريق مظلماً ومليئاً بالضباب، قال "أسداد" بينما ترتجف يداه:

- أخاف أن نمرَّ على شلال ولا نراه في هذا الضباب فنسقط وتتهشم عظامنا.

- لا تقلق يا صديقي، لقد أتيت هنا من قبل، ولا يوجد شيء يدعو للقلق.

قادنا النهر حيث يريد في رحلة شاقةٍ، فتارةً ينزلق القارب، وتزيد سرعته فيصبح كبساط سحري يغزو السماء ويعانق القمر، وأحيانا كدنا نصطدم ببعض الصخور الصلدة الراسخة في منتصف النهر كأنها نبتة مائية تتصيد زوار تلك المنطقة، وتارةً أخرى يبطئ النهر حركتنا في بعض

مواضعه فنلتقط أنفاسنا، ونرتوي بتلك المياه العذبة التي لا أعتقد أن الأعداء انتبهوا إليها، وإلَّا قاموا بتلويثها.

أخيراً انتهى مجرى النهر، واستقر القارب في بقعة مياه راكدةٍ أعرفها حق المعرفة، قمت بتحريك المجاديف مقترباً من حافة البركة فرأيت رأساً ضخماً من الصخور الملساء مستقراً فوق ما يشبه سوراً قصيراً، رأس حليق، ووجه يضم شارباً ضخماً.

لاحظ صديقاي البسمة التي اعتلت وجهي فقال "نمير" :

- ما الأمر يا مولاى؟.

- لقد وصلنا، هذا هو الممر، وفي نهايته تقع الجزيرة.

انطلقنا في ذلك الممر الواسع المحاط برؤوس منحوتة في الصخر على جانبيه حتى رأيت نوراً منبثقاً بعيداً أمامنا يشبه نقطةً مضيئة وسط الظلام.

انتفض "أسداد" :

- سيِّدي، لا بد أن هذه هى الجزيرة.

شرعنا نحرّك المجاديف بسرعة وحماس كالغريق الذي وجد قشة يتعلق بها حتى وصلنا إلى الجزيرة، كانت الجزيرة محاطةً بكميات رهيبة من الجليد لم أعهدها حين زرْتُها من قبل، والشمس قد ظهر منها جزء بسيط يضيء الجزيرة فقط دون باقي البحر أو تلك الجبال المجاورة؛ فأصبحت كلؤلؤة مضيئة داخل صدفة مظلمة.

استقر القارب بجوار الجليد فتركناه، واتجهنا نحو الجزيرة حيث يقف رجلان قويان كثيفا الشعر يشبهان بعضهما للغاية، كأنهما توأم يرتديان عباءة طويلة تغطي كامل جسديهما.

قال أحدهما:

- مرحبا بكم، إن الحكيم "زعبل" ينتظركم.

قلتُ مندفعاً:

- هل يعلم بمجيئنا؟.

- نعَم، لقد انتظر طويلاً.

قال الآخر:

- لقد أَمَر بحسن ضيافتكم حتى قدومه.

- أليس موجوداً؟.

- بلى .. لقد ذهب إلى رحلة علاجية في الجبال.

- ولكن نحتاجه في أمر طارئٍ.

- لا تقلقْ، لن يتأخر.

قال الآخر:

- سيكون هنا غداً.

ران الصمت علينا لبرهة حتى قال أحدهما:

- تفضل يا سيّدي، سأريكم غُرَفكم.

سرنا معه معجبين بتلك العمدان الطويلة التي تشبه النافورات تضخ الثلج في أنحاء الجزيرة.

قلتُ لمُضيِّفنا متعجباً:

- لِمَ كل ذلك الجليد؟ ولم تشرق الشمس على الجزيرة فقط؟!

قال بكل هدوء بينما عقد ذراعيه داخل أكمام عباءته:

- سيدي "زعبل" سيجيبكم على كل الأسئلة التي تعرفونها، والتي لا تجيدون صياغتها.

تعجبتُ من ردة فعله الهادئة، وثقته البالغة، وكذلك فعل صديقاي المخلصان.

قادنا أتباع "زعبل" إلى غرفة فخمة ذات بريق مميز، لم أرَ مثلها قط، تبدو كمزيج مذهل من الياقوت والمرمر، تتدلى من سقفها قطع مرصوصة منمَّقة ترسل أشعة فضفاضة.

بعد فترة قصيرة استسلم صديقاي للنوم بينما أصابني الأرق، فكلما حاولت إرخاء جسدي على الفراش تذكرت أخي الحبيب وما حدث له .. عيناي لا يمكنهما استدعاء الظلام، وذلك المشهد المقيت لا يفارقهما، بل زادت وطأته، وبدأ عقلي يهيئ لي ما جرى، وكيف كانت المعركة غير منصفةٍ؟!.

بعد وقت طويل من المحاولات البائسة للحصول على بعض الراحة وربما أيضا على بعض من السكينة التي طالما عهدتُها بين أحضان أخي

منذ نعومة أظافري، وجدت نفسي أسير خارج الغرفة، وقادتني قدماي نحو مكان هادئٍ يخلو من البشر، فقط مسطحات الماء الواسعة الممتدة إلى ما لا نهاية، يعانقها الظلام وتحيط بها جبال رواسٍ، لا يقلقها أيّ شيء ألبتة.

أشعر بضيق صدر رهيب، وقلبي غير مستقر في مهجعه، أتمنى لو كنت جبلاً صامتاً كهؤلاء لا أشعر بالألم أو الحزن، فجأة تحولت حياتي من أمير مرفَّه منعَّم بالقصور الفخمة والمعيشة الميسّرة إلى رجل تائه ضل مراده، لا أدري ما هذا الشعور والإحساس القاسي الذي يطاردني؟، لعلي متُّ بدلاً من أخي، لعلي أموت الآن، لِمَ أصبحت الحياة بتلك القسوة.

حينها شعرت بجسدي ينتفض، وتحول الحزن الدفين لخوف مَهِين حين قفزت بلا رغبة، وبدوت كالأبله عندما وجدت أحد الرجلين اللذين رأيناهما سابقاً، وقد ارتسمت على شفتيه شبح ابتسامة صغيرة.

التقطت أنفاسي بسرعة، وقلت له على عجالة:

- هل هناك خَطْب ما؟

أجابني بهدوء تامٍّ كالمعتاد:

- لا شيء يا سيدي، لقد رأيتكَ تقف وحيداً فرأيت أنّه من الذوق أن أسألك إن احتجت شيئاً.

صمتَ برهة يتأمل وجهي المرتبك ثم أردف:

- ذلك إن لم تمانع يا سيدي.

- لا لا .. ممم، انتظر هل تمانع أن أسألك بعض الأسئلة؟

- بالطبع لا، يا سيّدي.

- حسناً ولكن أتمنى أن تجيبني.

طأطأ رأسه وقال:

- بالطبع يا سيدي، تفضّل.

- كيف لم يصل الأعداء إليكم؟.

- إنّهم يهابون الثلج.

قاطعته، وقلت بلهجةٍ حادةٍ:

- هل تمازحني؟، هؤلاء الشياطين يخافون من الثلج؟!.

- نعم لذلك قام قائدنا "زعبل" بجلب أكوام الجليد تلك، وأحاط الجزيرة بها.

فجأةً هدأت ثورتي، وعاد إلى قلبي بعض الأمان حين جال بخاطري أن "كلنار" قد تكون تمكنت من الوصول إلى مملكة أبيها واستقرت هناك في أمان.

نظرت له في عينيه، وقلت بتؤدةٍ:

- هل يمكننا القضاء عليهم؟.

- طبعاً يا سيّدي، لقد سمعتُ القائد يتحدث عن كنز سوف يكون فيه هلاكهم.

- كيف يكون الكنز سبباً في هزيمتهم؟

رفع كتفيه قليلاً للأعلى:

- لا أعلم يا سيدي.

ران الصمت علينا للحظة قبل أن ينفضّ هذا الاجتماع، ثم عدتُ إلى الغرفة وانزلقت عيناي في أغوار النوم العميقة.

في اليوم التالي شعرت بجسدي وقد أصابتْه حرارة الشمس لأول مرة منذ أيام طويلة، فنهضت نشطاً على غير عادتي، وفتحت النافذة على مِصراعيها، ووقفت باسطاً ذراعيّ؛ لأستقبل تلك الأشعة الصفراء المتوهجة كنبتة صغيرة بحاجة إليها للنمو.

بعد وهلة وجدت أهل الجزيرة يصيحون ويغنون بينما يهرولون جميعاً في اتجاه واحد لاستقبال قائدهم الذي عاد لتوِّه من الجبال، أيقظت صديقيَّ، وخرجت أتابع فرحة الجميع بقائدهم، وركضهم نحوه بكل تلك اللهفة، "لا بد أنه حاكم عادل" هكذا قلت لنفسي.

بعد العديد من الأغاني والهتافات تفرّق الجمع، ودخل قائدهم الحكيم إلى مبنى ضخم يبدو مخصّصاً له.

* * *

كُلنار

خرجنا إلى المملكة المتجمدة التي تشبه الماس اللامع، نمشي وسط شعبها المتواضع الودود، وما إن لاحظونا حتى تجمعوا حولنا وقد بدَت في أعينهم علامات الشوق والحنين لأميرتهم الغائبة.

مكثنا فترة معهم بالقرب من المسطحات المائية ننعم بالهدوء ومشاهدة الأسماك الصغيره تتقافز فوق سطح الماء في خفة ورشاقة حتى اقتربت الشمس من الرحيل، وبدأ الليل يسدل ستائره الداكنة، فعدتُ مع أمّي إلى القصر وودعتها قبل أن أنصرف إلى غرفتي.

جلستُ في الشرفة أراقب النجوم الصغيرة التي زُيّنت بها السماء كعقد من الجواهر المشعة ترتديه فتاة فاتنة فيزيدها جمالاً.

أعلم أن أمي لن تخبرني بشيء، وستظل تتهرب من أسئلتي كلما أردت معرفة ما فعله أبي، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن أسأل أبي؛ لأنه لن يخبرني بالحقيقة.

ترى ماذا فعل أبي؟، وهل له علاقة بما حدث خارج المملكة؟.

أكاد أجنّ وأفقد عقلي من كثرة أسئلته، ولا أطيق الانتظار، ولا يمكنني النسيان أو التغاضي عن المعرفة، لا بدّ من حلّ، لا بدّ من وجود شخص في القصر غير أمي وأبي يخبرني بالحقيقة.

"تارا" ... هى الوحيدة التي قد تخبرني بكل شيء.

أحضرْتُها في اليوم التالي في غرفتي، وبدأت أحدثها عن الماضي والذكريات حتى أصبح الجو ملائماً لأسئلتي، ثم انقضضت عليها بغتة بسؤال مفاجِئ:

- لقد سمعتُ أمي تقول: إن الملك - أبي - قد فعل شيئاً استاء منه أهل المملكة.

بدأت البسمة على وجه الفتاة تنكمش، وراحَت تتلفت حولها كمَن يهرب من أحدهم.

وضعت يدي على كتفيها وقلت لها مطمئنةً إياها:

- لا تقلقي يا صديقتي، لن أخبر أحداً بما سيدور بيننا، ألا تذكرين أنكِ كنتِ بئر أسراري؟، لقد كنت أخبركِ بكل شيء، ألا تثقين بأعز أصدقائك؟.

بدأت تهدأ قليلاً وقالت:

- العفو سموّ الأميرة، ولكن أخاف من الملك فقد أصبح قاسياً جداً.

- ألا تعرفين ما حدث خارج أراضي المملكة؟.

هزت رأسها نافية.

استطردت بلهجةٍ مستنكرةٍ:

- لا أحد في المملكة كلها يعرف؟!

قالت مشدوهةً وبدَتْ بلهاء:

- يعرف ماذا؟.

- لقد اختفت الشمس من كل بقاع الأرض خارج مملكتنا.

قالت الفتاة غير مستوعبة لِمَا تسمع:

- ماذا تقصدين سموك؟!

- لقد حلّ ظلام دائم على الأرض فلم تعد تشرق الشمس، وظهرت من العدم جيوش مظلمة تصطحب حيوانات بشعةً كأنها شياطين تريد القضاء على الجنس البشري.

زاغت عينا الفتاة غير مصدقة، وقالت بدهشة:

- كيف يحدث ذلك ولم نرَ أيّا من هذا أو حتى نسمع عنه؟.

- يبدو أنهم يخافون من الثلج، ويهربون منه لذلك لم يتمكنوا من دخول المملكة.

نظرت لي الفتاة نظرات غريبة وكأنها تظنني جُنِنْتُ أو غبتُ عن الوعي، ثم قالت:

- حتى إن حدث ذلك، فما علاقته بالملك وما فعله؟.

قلتُ لها بنبرة حاسمة:

- لا أدري، ولكن أخبريني بما تعلمين.

همست الفتاة بصوت خافت بعدما اقتربتْ منّي:

- لقد جمع الملك شعب المملكة منذ ما يزيد عن شهرين، وأخبرهم أنه سيجمع منهم ضرائب باهظة لتجهيز كتيبة من المُنقِّبين وبعض الجنود بالعتاد والمؤن؛ ليقودهم إلى أطلال الشمال للبحث عن الكنز.

قلتُ لها مندفعة:

- أىّ كنز؟.

- لقد ظهرت نبوءة، وجاء حكيم الجزيرة إلى الملك يحذره منها ولكنه طرده وتحالف مع الملك "حياز"، وأخبر الشعب أنه سيأتيهم بالكنز، وينعمون به جميعاً.

- مِمَّ حذره حكيم الجزيرة؟.

هزت رأسها تنفي معرفتها.

همستُ في نفسي كأني أخبرها بسرّ:

- لقد ظهرت تلك الجيوش منذ شهرين تقريباً، لا بدّ أن هناك علاقةً ما تربط بين تلك الأحداث.

التقطتَني الفتاة من بحر أفكاري، و شتّتت الهالة التي تكونت حولي:

- فيمَ تفكرين يا مولاتي؟.

- ماذا حدث بعد ذلك؟.

- عاد الملك خالي الوفاض يجر ذيول الحسرة، وبعدها تعالت صيحات الندم والاستهجان بين الناس، ولكن لم يتغير شيء سوى الفقر الذي اقتحم المملكة، وذبح أبنائها، ولكن يا سيدتي لم نرَ جيوشاً مظلمةً أو شياطين تنفث النيران.

لاحظتُ نبرة السخرية، ورأيتها تلمع جليًّاً في حدقتيها فاعتذرتُ منها كي أنام.

بعدما رحلت الفتاة تسارعت التوقعات تتدفق بداخل عقلي كالأمواج، لم يكن أمامي حلًّاً إلا مواجهة أبي ومعرفة ما حدث.

أعلم أين أجده في هذه اللحظة، لا بدّ أنه يجلس الآن في تلك الحديقة البيضاء، ذهبت مسرعةً أقفز فوق الدرج حتى وصلت، كانت حديقة بلا أسوار أو بوابة دخول، بها قناة مائية صغيرة ملتوية تعكس صورة الأشجار الجافة كالرجل الحليق وتزينها الثلوج على جوانبها وتتخللها في بعض المواضع ، شجر كثيف الفروع بلا أوراق على ضفتي النهر الصغير

تكاد تتشابك فروعها، وقرص الشمس الذهبي قارب على الغروب فلاح ضوء مميز في الأفق.

جلستُ بجانب أبي الذي بدَتْ عليه آيات المفاجأة:

- ألا تريد رفقه سموّك؟.

ضحك أبي حتى بانَت نواجذه وتطلع في وجهي:

- لقد افتقدت دعاباتك الشقية.

استعدت رباطة جأشي، وغيرت نبرة صوتي إلى أخرى صارمة:

- ماذا حدث في أطلال الشمال؟.

غضب الملك، وتغيّر وجهه فاستحال وجهاً غريباً لم أعرفه ولم أره من قبل:

- مَن أخبرك بتلك الحادثة؟.

- لقد عرفتُ من صديقك الملك "حياز" ، وهو مَن أرسلني هنا ليطلب منك العون.

- ألم يخبرك أيضاً أنه اشترك معي في تلك المهمة، ويقع عليه اللوم تماماً مثلي؟!.

اخترق الخوف قلبي مثل سهمٍ من سهام الأعداء الحادة التي تخترق أعناق الجنود، لا أستطيع تحمل فكرة أن أبي قد تسبب في ظهور هؤلاء الشياطين الذين أبادوا معظم الأحياء على الكوكب وما زالوا يطوفون الأرض بحثاً عن غيرهم.

قلتُ له بعدما لمعت عيناي بغشاء رقيق من الدمع:

- لِمَ فعلت ذلك يا أبي؟.

مسح تلك العبرات الرقيقة بيديه القاسيتين وضمّني إلى صدره:

- لم أصدق كلام "زعبل" ، ظننته قد شاب، وفقد عقله.

هدأ قليلاً حتى جفّت دموعي فاستطرد:

- ولكن يبدو أننا هنا في أمان، فقد رأى جنودنا في اليوم السابق بعضاً من فرسانهم أرادوا عبور الجليد في جنح الليل ولكن لم يستطيعوا وفروا فزعين.

- لِمَ لَمْ تأتِ لإنقاذي؟.

رفع رأسي، وقبَّل جبهتي ثم قال محاولاً استحضار بعض الحنان:

- لم نعرف بوجودهم إلَّا بعد مجيئكِ، فقد أرسلت بعض الجنود إلى أطراف المملكة لمعرفة أن كان أحدهم يتتبعكِ.

- إذن متى سترسل العون إلى صديقك؟.

أخذ بعض الوقت في التفكير ثم قال متردداً:

- لا يمكنني إنقاذهم من تلك القوى التي لا قِبل لنا بها.

صحتُ فيه معاتبةً:

- ولكن ما ذنب أولئك المساكين الذين يُذبَّحون بسبب ذنب اقترفه ملكان، وقلتُ في أعماق روحي "جَشِعَان" .

صرخ هو الآخر:

- انتهى الحديث ولن نناقشه ثانيةً.

ثم نهض مسرعاً، وقال قبل أن يرحل:

- ولا تخبري أمك بشيء.

لِمَ فعلت ذلك يا أبي؟، ماذا كان ينقصكَ، لقد كنت ومازلت ملك أكبر مملكة في الشمال، ماذا أفعل لا يمكنني ترك أولئك المساكين يعذبون ويقتلون بسبب ذنب أبي وأبي "فضاض" الذي تسبب في قتل ابنه البكر دون قصده , ماذا سيفعل فضاض هو الآخر إذا علم بذلك؟، لا أصدق ما يحدث.

ذهبت إلى غرفتي أنشد بعض الراحة.

* * *

فضاض

لم ننتظر طويلاً حتى أتى رجل يطرق بابنا، قال بينما عقد ذراعيه بداخل أكمام عباءته:

- الحكيم ينتظر حضوركم.

انطلقنا خلفه حتى دخلنا تلك البناية الضخمة، كان القائد "زعبل" يجلس متربعاً فوق مقعده الواسع يفصله عن أرضية المبنى بضع من درج السلم.

وقف الرجل بجانب قائده بينما توقف ثلاثتنا أمامه، تقدمت خطوة وقلت بنبرة استجداء:

- الملك حياز يبلغك أسفه، ويطلب منك العون.

ضحك "زعبل" ضحكة هادئة اهتزت معها أطرافي وارتعدت فرائصي.

قلت له مستنكراً:

- علامَ تضحك أيها الحكيم؟.

تبدلت نظراته الودود بأخرى غاضبة، وشرع يحرك كفيه بإشارات بسيطةٍ، بينما أخذ خادمه على عاتقه مهمة ترجمة تلك الإشارات إلى عبارات:

- لقد حذرت الملك "حياز" وملك الصقيع من ذلك الكنز الذي فتن عقولهم ولكن لم يعيراني أى انتباه، وفي المقابل لم يتركني أبوك أرحلُ بسلام ولكن قطع لساني.

صمت برهة وترك مقعده ثم بدأ يلتف حولي وأردف:

- والآن يرسل ابنه وبكل بساطه يقول "أنا آسف!!" .. أريد العون!!

- إن القلعة تنهار، وشعبها لا ذنب له.

- لم لا يقاتل أبوك و يُصلح أخطاءه؟.

توقف لساني عن الحركة فلم أجد ما أجيبه به وكأن لساني قد قطع هو الآخر.

وضع يده على كتفي وضغط بقوة قبل أن يتجه مرة أخرى إلى مقعده الوثير، قال بتؤدة بينما تيبست في مكاني من المفاجأة:

- لقد استعدت لساني ثانية باستخدام بعض أعشاب الجبل النادرة.

حاولت أن أجمع ما تبقى من قوة بداخلي وقلت له:

- هنيئا لك، ألم تكن تعلم بمجيئنا وسبب لجوئنا إليك؟.

- نعَم، ولكني لست دجالاً أو منجماً، وإنما سمعت عن رحلتكم.

شرد بناظره قليلاً ثم أردف:

- لقد علمت أن الأعداء يبحثون أيضاً عن الكنز ولكن يفقدون جزءاً من خريطته.

- ما هو ذلك الكنز الذي يبحث عنه الجميع؟.

ضحك الحكيم ثانية وقال:

- لا تتوقع الكثير، إنه ليس ذلك النوع من الكنوز الذي يجذب الطماعين والبلهاء، وإنما هو مجرد كتاب.

- كتاب؟! .. وماذا يريد هؤلاء الشياطين من كتاب؟.

- إنهم لا يريدونه للاحتفاظ به، وإنما لحرقه والتخلص من ورقاته.

- لم؟.

- لأن به هلاكهم.

- لا أفهم.

أومأ الحكيم برأسه مبتسماً كأنه يتلذذ برؤيتنا كالبلهاء, ثم عاد يغمغم ثانية:

- إن سرد قصة الكنز الآن لن تفيدكم بشيء, دعونا نفكر في حل آخر.

- لن تفيدنا؟ لماذا؟.

- لأنه من المستحيل بلوغ ذلك الكنز بدون خريطته.

انتفضت أطرافي، وتحفزت قسماتي بينما أخرجت ورقة من جيبي ورفعتها لأعلى في مواجهة الحكيم:

- أتقصد تلك الخريطة؟

نهض الحكيم من فوق كرسيه مسروراً للغايه، وجاء مسرعاً نحوي, وبعدما رأى الخريطة قال مستنكراً:

- كيف حصلت عليها؟.

- لقد وجدنا نصفها بحوزة أحد الفرسان والنصف الآخر سلبناه من بعض جنود الأعداء الأغبياء.

تفحص "زعبل" الخريطة جيداً، ثم انطلق مباشرة نحو أحد أركان الصالة وتركنا في ذهول بعدما أخذ الخريطة معه, فتح باباً قصيراً ثم راح يتلفت حوله حتى رآنا فصاح منادياً كي نتبعه.

كان الباب يواري خلفه دهليزاً طويلاً بدا عتيقاً من شكل جدرانه المهترئة وضيق عرضه الذي يتسع بالكاد لشخص واحد.

توجهت بسؤالي لمضيفنا الذي تغير حاله تماماً وانقلب رأساً على عقب بعد رؤية الخريطة:

- إلى أين تأخذنا؟.

لم يُعرْني أيَّ اهتمام وواصل تقدمه وفحصه للخريطة.

عاودت طرح نفس السؤال بصوت أعلى خرجت معه أنفاسي الغاضبة:

- إلى أين تأخذنا أيها الحكيم؟.

توقف الرجل فجأةً والتفت نحوي وبكل برود قال:

- سوف نبحث عن الكنز لننقذ القلعة.

واصلنا التقدم حتى انتهى الدهليز وألقى بنا إلى أرض خربة مليئة بالحطام والكتب الممزقة الملقاة في كل مكان وفي وسط كل تلك الفوضى والعبث كان هناك ثقب ضخم في الأرض تمتد منه آثار أقدام إلى ما لا نهاية، أقدام غريبة ليست لبشر بأحجام وأشكال متنوعة.

جلست القرفصاء بجانب تلك الآثار المحفورة في التراب بعناية شديدة ودقة متناهية كأن أحدهم قد اهتم بنحتها ليشاهدها الآخرون.

قلت لزعبل حائراً:

- هذه الأقدام الضخمة تشبه أقدام الحيوانات اللعينة التي يمتلكها الأعداء.

وقف الحكيم أمامنا وقال بصوت جهوري:

- هذه الأرض يا سادة لم تكن مجرد مجموعة من الصخور المحطمة والكتب الممزقة، لقد كانت هذه الأرض المقدسة حصناً حصيناً وسداً منيعاً لنا من كل مكروه وسوء فقد كانت تضم أضخم مكتبة على وجه

الأرض قاطبة، لقد ضمت بين رفوفها الصلبة حزماً من الكتب الفريدة التي ظلت طوال القرون الماضية تحمي هذه المملكة وشعوبها.

- ماذا حدث لها؟.

- لقد ظهرت شائعات مهلكة بأنها تضم كنزاً ثميناً، وهى بالفعل كانت ولكن ضعاف القلوب صغار العقول تهافتوا نحوها لاهثين منقبين عن الذهب والفضة ظانين أن كلمة "كنز" هى قاصرة فقط على أى شيء يلمع.

صمت زعبل برهة يلتقط بعض الهواء ليرطب رئتيه الجافتين ثم عاد يصرخ:

- لقد أتى الملك "حياز" وملك الصقيع هنا ينقبون عن الكنز فلم يجدوا شيئاً وعزموا على العودة لولا خادم أبيكَ الخبيث الذي دسّ لهما السم في عقليهما فقاما بهدم المكتبة ومزَّقا كتبها، وحين لم يجدا شيئاً رجعا أدراجهما بعد أن تحقق مراد الشيطان "زاعر".

- إذنْ لا يوجد كنز؟.

- يوجد كنز وهو الذي سينقذنا، ولكن مكان الكنز لن يعرفه إلا قوم لونر.

- لونر!! أليس هؤلاء القوم مجرد أسطورة خيالية.

ضحك زعبل ضحكة مجلجلة:

- هذا ما تقوله الأمهات لأطفالهن قبل النوم.

احمر وجهي خجلاً حتى انتهى الحكيم من ضحكه وعاد يستطرد:

- تلك الرموز القمرية في ظهر الخريطة هى لغتهم القديمة، لا يعرفها أيُّ مخلوق على الأرض غيرهم.

- كيف سنصل إليهم؟

- اتبعوني.

* * *

كُلنار

في الصباح التالي فاجأتني طرقات مفزعة على باب غرفتي ففتحته بسرعة ورأيت "تارا" خلفه.

أشرت لها بيدي أن ادخلي، ثم قلت بخمول من استيقظ لتوّه من نوم عميق:

- ما الأمر؟

أجابتني بوجه مضطرب:

- لقد قام الملك بحبس قائد الجيش "مورد" ومعه عشرون جنديًّاً.

- لماذا؟.

- لا أعلم السبب ولكن كلهم كانوا معه في رحلة أطلال الشمال.

- إذن لابد أن أقابل القائد "مورد" هكذا قلت لنفسي بعدما جحظت عيناي.

قالت "تارا" :

- لقد رأيت أن أخبر سموك حيث إنكِ مهتمة بهذا الأمر.

- أحسنت صنعاً يا تارا.

أعطيتها عملةً ذهبيه كانت هدية من فضاض، فشكرتني ورحلت.

بعد سويعات قليلة كنت أقف بجوار زنزانة صدئة مهترئة تحجز بين قضبانها القاسية قائداً عظيماً ومحارباً صلداً لطالما دافع عن هذه المملكة بكلِّ قوته وصدّ عنها أعداءها، وها هو اليوم يقف داخل أحد سجونها مكبلاً بالأغلال، ولكنه مازال شامخ الرأس مهيب الهيأة.

أمرت حارس السجن بالانصراف ثم اقتربت من ذلك القفص الحديديّ الصغير وقلت بصوت خفيض:

- ماذا حدث أيها القائد؟.

بدا مشدوهاً للغاية لرؤيتي:

- مولاتي!! ...

- أين جنودك؟.

- في سجن آخر.

قال القائد بلسان متعب:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

التفت حولي كاللصوص ثم اقتربت من الحديد المهترئ:

- ماذا حدث في أطلال الشمال؟

قال بلهجه غليظة:

- لِمَ لا تسألين أباك؟

- لقد حاولت ولكنه لم يخبرني بشيء.

شردت قليلاً في تلك الأغلال المثبتة في قدميه ويديه:

- هل تعلم ماذا حدث خارج حدود المملكة؟

- نعم.

صمت قليلاً ونظر تحت قدميه كأنه يعاتب نفسه ثم أردف:

- إنها غلطة الملك، وأنا اشتركت فيها.

قلتُ له بثقة:

- هل تريد إصلاح خطئك؟

رفع رأسه بغتةً:

- بالطبع.

- هل تريد تقديم العون لقلعة الملك "حياز" ؟

زاغت عيناه، وطال صمته حتى اعتقدت أنه غير رأيه:

- ولكن الملك "حياز" كان معنا في أطلال الشمال.

- هذا صحيح .. ولكن ما ذنب أولئك القوم المساكين شعب القلعة الفقراء؟

صمت مرة أخرى ولكن لم تغب عيناه عن وجهي .. كان يتفحصني كأنني مجرمة تنتظر عقابها، ثم أردف بنبرة قوية:

- ولِمَ ترغبين في مساعدتهم، ألا تخافين من أبيك؟.

تذكرت الأمير "رميح" فلمعت عيناي:

- إذا كنت رأيت أميرهم وهو يدافع عن القلعة مع جيشه حتى قُتلوا جميعاً لما قلت تلك الكلمات.

- أنا معك سمو الأميرة، لعل هذا التصرف يغفر لنا ما اقترفناه وبغير قصد فتحنا بأيدينا بوابات الجحيم.

ما إن سمعت قوله حتى غمرتني السعادة، وشعرت بأنني سأرى "فضاض" مرة أخرى:

- كيف أحررك من قيودك؟.

- حين ينتصف الليل يخر الجندي الذي يحرسني نائماً ومعه المفاتيح.

هززت رأسي بالموافقة ورحلت.

داخل غرفتي مكثت أفكر في أمي التي سيؤلمها فراقي للغاية، لا سيما بعد الشخص الغليظ القاسي الذي أصبحه أبي، رحت أطوف في الغرفة يميناً ويساراً أبحث عن حل يرضي جميع الأطراف.

ذهبت إلى غرفة أمي، قلت لها بصوت حزين:
- أمي، سأذهب غداً إلى "فضاض" لنرتب مراسم زواجنا ثم أعود لأصطحبك و أبي لحضور الحفل.

اقتربت مني ووضعت يديها على مقدمة وجهي بينما فاضت عيناها بالدمع، قالت بصوت مرتعش يمتزج بأنينها:

- فلتصحبك السلامة يا حبيبتي.

احتضنتها بقوة قبل أن أهتف:

- لا تخبري أبي حتى لا يغضب.

- حسناً.

ظللت معها حتى نامت ثم انطلقت نحو السجن وكان الوقت متأخراً، والمكان ساكن، لا بد أن الوقت قد حان، تقدمت نحو البوابة بخطوات حثيثة مترقبة حتى اطمأن قلبي عندما وجدت الحارس قد غرق في نوم عميق تماماً كما أخبرني القائد، وقفت أمام الحارس لألتقط السلسلة الحديدية التي احتضنت بين أطرافها مفاتيح حرية القائد.

فتحت الزنزانة وحررت ساكنها من قيوده، قال لي بامتنان:

- أشكرك يا مولاتي، سأذهب الآن لأحرر جنودي وأنت استعدي وانتظريني في غرفتك حتى أعطيك الإشارة، سننطلق اليوم قبل بزوغ الفجر.

أعطيته حركة برأسي تعني موافقتي وذهبت إلى غرفتي أنتظر تلك الإشارة.

بعد فترة قصيرة سمعت ضجة صاخبة تقترب من مسامعي ثم رأيت كرات ثلجية خارج الشرفة تحوم في الهواء ثم تنفجر فتتناثر أجزاؤها، لابد أن تلك هى الإشارة، خرجت مسرعة من الغرفة فوجدت القائد بانتظاري وبجواره حصان ناصع البياض يشبه كرات الثلج وخلفه عشرون جندياً فوق خيولهم يجرون خلفهم ثلاث عربات ضخمة تبدو مكتنزة ببضاعة ما.

انطلقنا خارج المملكة نقتحم ظلمات الليل حتى أمر القائد فرسانه بالتوقف، التفت بحصانه نحوهم وقال:

- أعدوا العربات.

اعتدت منذ طفولتي سماع قصصٍ كثيرة عن جيش المملكة كان يخبرني بها أبي بفخر واعتزاز، قصص مليئة بالعجائب عن أسلحة المملكة الأسطورية التي تختلف عن غيرها وأبطالها الأقوياء ذوي العزيمة الصلبة، حكايات ظننتها من وحي خيال أبي ولم أتوقع أن ذلك الجيش الأبيض حقيقياً، وأنني سأراه بل وأسير بين صفوفه يوماً ما.

يبدو أن "مورد" لديه خطة مدروسة، الآن علمت سبب سجنه لا بد أنه طلب من الملك أن يقود الجيش نحو القلعة لإنقاذها فرفض الملك.

وثب الفرسان تاركين خيولهم ثم ربطوا العربات الثلاثة ببعضها بحلقات معدنيه شديدة الصلابة ثم ربطوا الخيول جميعاً في مقدمة أول عربة.

عربات ضخمة تتدلى على جوانبها كرات ثلجية كبيرة تبدو كالصخور الصماء، سقفها مفتوح يستقبل ضوء القمر الخافت، وقفت مع القائد في العربة الأمامية بينما تجمع باقي الفرسان في العربتين الخلفيتين يقفون حول سلاح غريب يشبه المنجنيق ولكن أقل حجماً.

بتنا نسير في طرق متعرجة حتى رأيت من بعيد مجموعة رماح تحمل رؤوس الأمير وجنوده، واصلنا المسيرة حتى لاحت أمامنا جموع الشياطين يبدون منهمكين للغايه في خضم معركة ضروس والقلعة ما زالت قائمة تنازع بدماء أبنائها.

صاح القائد في جنوده:

- تقدموا.

بدأ القائد يضع كرات ثلجية في السلاح المثبت بداخل العربة ثم قام بقذفها عاليا فوق مجموعة من الأعداء، صارت الكرات تتناثر كما رأيتها من قبل ولكن هذه المرة عندما سقطت فوق أجسادهم المظلمة كانت كحجارة من سجيل ما إن تمس أحدهم حتى تجعله كعصف مأكول.

انتشرت الفوضى بين صفوف الشياطين السوداء فأصبحوا كقطعة اللحم بين أنياب الأسد يقلبها كيف يشاء، صفوفهم الأمامية أضحت فريسة تائهة في العراء لسهام جنود القلعة، وصفوفهم الخلفية تتساقط كعقد انفرطت حباته.

فزع الجنود وصاروا يركضون من أمام عرباتنا يميناً ويساراً كمَن يخاف أن يدهسه فيل ثائر، بينما تعالت صيحات الجنود فوق أسوار القلعة وحين اقتربت الخيل من تلك الأسوار كان الجنود قد فتحوا البوابة ودخلنا القلعة سالمين .. كان هناك بعض الجند قد تتبعوا عرباتنا واستطاعوا العبور معنا قبل أن تغلق البوابه ثانيةً.

وثب القائد "مورد" من فوق العربة بخفة وسحب سيفيه في الهواء متوجهاً نحو حفنة القذارة التي دخلت بدون إذن، كانوا قرابة عشرة جنود متراصين في خط أفقي، لحق بالقائد خمس جنود من أتباعه

وقبل وصولهم بالعون كان "مورد" قد نحر خمس رؤوس مستخدما سيفين بكلتا يديه.

جاء القائد "سيف" مسرعاً تتقافز آيات السعادة على وجهه، ألقى عليّ التحية وعلمت منه أن فضاض لم يأتِ بعد، توجه إلى صديقه "مورد" يشكره على مجيئه ويحيّي جنوده الشجعان.

كادت فرحة القائد "سيف" العارمة تنسيه أميره "رميح" الذي تجسدت البطولة والشجاعه في ذاته ومن معه من الفرسان والجنود والنشابين، أولئك الذين بذلوا أرواحهم بدون تردد دفاعاً عن أهالي القرية الأبرياء.

صعد "مورد" وفرسانه فوق السور الضخم الذي ضم عشرات من الحدادين الضعفاء ممسكين بأقواسهم وسهامهم و عشرات أخرى أزهقت أرواحها وسكنت أجسادها في سلام، بينما تيبس "سيف" يفكر وكادت الدموع تغلبه، سألني بصوت متهدج:

- أين الأمير؟.

ترددت لحظةً لم أكن أرغب أن أخبره حتى لا تهتز ثقة جنوده المهزوزة بالفعل، اقتربت منه وأخبرته هامسة:

- لقد مات وجميع فرسانه عندما باغتنا الأعداء، وقد أعطاني حصانه كي أهرب.

هربت من عينيه دموع قاسية لم يستطع إخفاءها حتى ابتلت لحيته الصغيرة قلتُ له بتؤدةٍ:

- اهدأ أيها القائد ولا تخبر جنودك حتى لا تخر قواهم ولا تخبر الملك أيضاً.

هز رأسه بالموافقة وقال:

- لقد علم الملك، لقد ظنتته فقد عقله ولكنه كان محقاً.

- ماذا حدث؟.

- منذ بضعة أيام استيقظ فزعاً وشرع يصرخ وينادي على "رميح"، كلما أخبره أحد أنه أرسله إلى مملكة الصقيع صاح في وجهه غير مصدق، ومنذ ذلك الحين وهو ماكث في غرفته لا يفارقها.

صمت القائد برهة ثم استطرد:

- أين بقية الجيش الأبيض؟.

لم أجد ما أجيبه به أو أبرر به فعل أبي، ترددت قليلاً قبل أن أقول:

- لقد جئت مع القائد "مورد" بدون علم الملك.

قاطعني القائد متلهفاً كعادته:

- لماذا؟

- إنه خائف على جنوده ويعتقد أن هؤلاء الأعداء لا يستطيع أى أحد ردعهم.

مال برأسه للخلف:

- حسنا يا مولاتي، هل أصطحبك إلى الداخل؟.

- لا، سوف أقاتل.

حاول القائد بشتى الطرق أن يمنعني ولكن بعد وقت طويل من الحديث بلا فائدة أعطاني قوساً جيداً ذات وتر مشدود وفي الوقت ذاته ليّن وسلِس.

* * *

فضاض

تقدم زعبل بخطى حثيثة ينظر للسماء نظرات مطولة لا يسمع مَن حوله كأنه في خضم إحدى خلواته العلاجية, بعد مسيرة ليست قصيرة ظهرت في السماء طيور غريبة ذهبية اللون لها صوت عذب مميز.

رآهم زعبل فانفرجت أساريره وقال:

- لا يمكن لأحد أن يصل لقوم لونر بدون توجيه تلك الطيور، وتلك الطيور لا تظهر إلا حين تكون في حاجة ماسة لبلوغ قوم لونر.

شرعنا نتبع تلك الطيور الأنيقة، وكلما قطعنا شوطاً خلفها ظهرت مجموعة أخرى حتى أصبحت أسراباً عظيمةً أنارت السماء بلونها الوهاج، التحفت السماء برداء ذهبي وزينها تاج الفضة المشع فأصبحت عروساً شارداً يتسابق على أبوابه الزوار.

بدأت الطيور تهبط من السماء بعيداً، وتقلصت أعدادها فازداد الحكيم سروراً، بعد قطع كل تلك المسافة وجدنا الطيور قد تراصت فوق درجات سلم طويل ممتد إلى عنان السماء تزينه الورود والأزهار.

- ما هذا؟

هكذا تساءلت مشدوهاً، لم أصدق ما أتت به عيناي.

قال الحكيم بكل هدوء:

- هذا طريق قوم لونر.

- إلى أين ينتهى هذا السلم؟، أنا لا أرى له نهاية.

- ألا تريد العثور على الكنز؟.

- بلى، بالطبع أريد.

كم أكره هذا البرود وتلك الردود السخيفة!، ولكن لن أستسلم الآن بعد كل هذا العناء.

نظرت لصديقيَّ:

- هيا بنا.

بدأنا نتسلق تلك الدرجات القائمة في الهواء بلا عمدان حتى بلغنا منها مبلغاً بعيداً فكانت السحب تتراقص من حولنا فتأتي السحابة كأنها كتلة من المياه المجمدة فتقترب منا وتتبدد فوق جباهنا، فنشعر بالبرد وترتعش أطرافنا، اختفت الطيور تماماً وأصبحنا في منتصف الطريق، فالأرض من تحتنا لا نراها أضحت كنقطة سوداء متناهية الصغر واكتنفتنا السماء بهوائها الرطب وسحبها البديعة، ولكن لم نصل بعد إلى وجهتنا.

أصابنا الإرهاق فلم نقوَ على المواصلة، أراد أسداد ونمير التوقف قليلاً للراحة ولكن زعبل صرخ غاضباً:

- هيا بنا لقد اقتربنا للغاية.

همس لي نمير بصوت خافت:

- ألا يشعر هذا الرجل بالتعب؟.

لمْ أصدر صوتاً واكتفيت بهز رأسي نافياً، شرعنا نواصل الرحلة ونشق تلك السحب الكثيفة فوق رؤوسنا حتى لاح بعيداً شيء يلمع له بريق

يكاد يصيب العين بأذى من قوة ضوئه، وعندما اقتربنا فاح في الأفق أريج طيب هامت به أفئدتنا.

وجدنا أنفسنا أمام بوابة ضخمة تتدلى على جوانبها ماسات ولآلئ تصدر ذلك البريق الحاد.

قلتُ لزعبل مسروراً:

- ماذا سنفعل الآن؟.

نظر لي زعبل نظرةً لائمة كأنني طفلٌ ذو عشرة أعوام، وقد فعلت خطأً فادحاً:

- اهدأ وتمالك أعصابك أيها الرجل.

اقترب زعبل من البوابة، وبدأ يتمتم بكلمات غريبة لم أفهمها، ولكن بعد هنيهة فُتحت البوابة على مصراعيها، وظهر خلفها رجل قصير، ولكن ضخم الجثة له أذنان مقوسان كالهلال غير المكتمل ووجه بشوش احتضن زعبل وسلم عليه بحفاوة.

قال الرجل ذو البطن الرجراج:

- لماذا تأخرتم هكذا؟.

أصابتني الحيرة بقوة تماماً كما فعلت السحب من قبل:

- كيف علمت بمجيئنا؟.

ضحك الرجل وشاركه زعبل ثم أدار جسده للخلف وقال بينما أطلق العنان لقدميه:

- أنا أعرف الكثير.

شعرتُ بأن روح الحكيم "زعبل" قد لحقت بنا، وألقت ببرودها، وثقلها في أرجاء السماء.

انطلقنا خلفه في ردهة طويلة حتى وصلنا قاعة ضخمة مليئة بالعمال، وكان جميع الموجودين هناك متشابهين للغاية، فكانوا قصار القامة مقوسي الآذان، لهم جبهات عريضة تكاد تكون مقوسة أيضاً، وكانوا جميعا يعملون في الحدادة، ولكن يصنعون أشياء ضخمة للغاية لم أتمكن من معرفة كُنهها، ولم تساورني الشجاعة لأتساءل عنها حتى لا يردني الأبلهان خائب الرجاء.

واصل الضخم السير، ونحن خلفه حتى خرجنا من تلك البناية، وأصبحنا أمام مشهد بديع لا يستطيع وصفه إلا من رآه بأم عينه، وقفنا فوق أرض صلبة مليئة بالصخور وفي الأفق الشمس والقمر على مسافة تبدو قريبة للغاية، الشمس أمامنا والقمر خلفنا، لا أدري هل نحن نهاراً أم ليلاً؟، ولكن لم أتمكن من مقاومة النظر لطلب المعرفة حتى صاح الرجل الضخم بصوته المقلق:

- مكتوب على الخريطة أن الكنز في وادي الأسود، وهو لا يظهر على الأرض إلا مرة واحدة فقط في العام حين يدخل القمر كله في منطقة ظل الأرض فيحدث الخسوف الكلي، حينها يكون يحيل القمر أحمر قانيا وتنعدم الرؤية تماماً.

- تنعدم الرؤية تماماً!! كيف سنراه إذنْ؟.

ظهرت علامات الغضب على وجهه السمين وهتف:

- دعني أنهِ كلامي أولاً.

راح يدفع أنفاسه الغاضبة خارج أنفه الدقيق ثم أردف:

- في منتصف الليل ستنعدم الرؤية تماماً، وهذا الوادي فقط سيشع ضوءاً، ولكن يجب أن تبحثوا فيه بسرعة؛ لأنه بمجرد انتهاء الخسوف يختفي هذا الوادي تماما من الوجود.

- أين سنجد هذا الوادي؟.

- في منطقة الجبل الدامي.

- متى سيحدث الخسوف؟.

نظر الرجل إلى الشمس والقمر نظرات متفحصة ثم عاد يقول:

- يحدث حين تكون الشمس والقمر والأرض في حالة اقتران كوكبي، أى: أمامكم أقل من يوم.

بلغ مني الخوف مبلغه:

- كيف سنصل إلى الجبل الدامي في هذه المدة القصيرة؟.

- لا تقلق، السحب ستساعدكم.

لم أفهم قصده، ولكن وجدت زعبل يشكره ويودعه، ثم طلب منا مرافقته، وصلنا عند منطقة نائية مليئة بالسحب الكثيفة، توقف

زعبل قليلاً ورأينا سحابة ضخمة قادمة تجاهنا، ظننت أنها ستتبدد كما فعلت صديقاتها من قبل، ولكنها استقرت أمامنا، وقفز زعبل فوقها فحملته كما تحمل المركب الصيادين.

ركبت معه أنا وصديقاي، وانطلقت بنا السحابة بسرعة فائقة، وبعد وقت قليل لم أشعر به استقرت بنا أمام الجبل الدامي.

قال زعبل:

- سننتظر حتى يحدث الخسوف.

- ولكن الجو مظلم بالفعل.

نظر لي زعبل ووضع يده فوق كتفي:

- لا تقلق يا سمو الأمير، حين يحدث الخسوف سيظلم أكثر من ذلك، فلن تستطيع حتى رؤية يديك وعندها سيضيء الوادي الذي به كنزنا.

لم يُنهِ زعبل حديثه حتى تحقق قوله، وأظلم الكون ثم انبثق نور من خلف الجبل فأسرعنا جميعاً نحوه، كان الوادي صغيراً به مجموعة عمدان طويلة متراصة بنظام دقيق في دائرة مغلقة، وفي منتصفهم عمود صغير يحمل كتاباً.

التقط زعبل الكتاب، وفتحه ثم بدأ يقرأ في ورقاته بهدوء يحرك شفتيه فقط، ولا يصدر صوتاً، بدأت الأرض تميد تحت أرجلنا، وتهتز بشدة فتحطمت العمدان الطويلة، وكادت تسقط فوق رؤوسنا، جذبت زعبل من قميصه كي نهرب ولكنه لم يشعر بشيء وواصل قراءته.

اختبأت مع صديقيَّ حتى هدأ الزلزال، وألقى زعبل الكتاب على الأرض ثم تلفت حوله بحثاً عنا وقال متلهفاً:

- تعالوا بسرعة بسرعة.

أمسك بيدي وقفز نحو الكتاب، فإذا بنا نعبر من بين صفحاته إلى مملكة الصقيع، وكأنه يوم العجائب التي لا تنتهي.

* * *

سيف

وقف القائد "مورد" وجنوده معنا فوق السور، ونصبوا مجانيقهم الصغيرة، وشحذوها بكرات الثلج الهائلة التي جلبوها معهم، والتي تفاجأت بقدرتها العجيبة على اختراق أجساد أعدائنا وتمزيق أحشائهم.

عاد الأمل يدق أبواب قلبي بطرقات متسارعة تناغمت مع نبضاته.

قذف الجنود تلك الكرات في السماء، فطارت كالنسور تنتقي أعداءها، وحين تقترب تلك القذائف من رؤوس الأعداء تنشر بينهم الهلع والفوضى قبل أن تهوى فوقهم فتأكل لحومهم.

بالرغم من سقوط العديد منهم صرعى إلا أن أعدادهم لا تتناقص، لا أدري هل هذا سوء تقدير مني أم أنها الحقيقة المرة؟.

أسرعت إلى مورد وطلبت منه التوقف عن قذف كرات الجليد والاحتفاظ ببعضها.

قال لي بعدما أصبته بالحيرة:

- لماذا؟.

- إن أعدادهم لا تتناقص، وتلك الكرات الثلجية هى آخر آمالنا في النجاة.

- ماذا تقترح إذن؟.

لم نكمل حديثنا حتى فوجئنا بهزة قاسية في السور كادت تسقطنا أمامه في فوهة الهلاك، كانت تلك الهزة نتيجة تقدم الأعداء بعدة مدقات نحو السور والشروع في تحطيمه.

قال مورد مفزوعاً:

- ماذا سنفعل الآن؟.

اتكأت بيدي على السور، وأنا أنظر إلى تلك الجموع الهمجية التي تهاب الثلج وتخاف حتى الاقتراب منه، ثم قلت له بثقة:

- سنحفر خندقاً حول القلعة، ونملؤه بالجليد، فإذا تحطم السور فلن يستطيعوا عبور الجليد.

- وإلى متى ستصمد كرات الثلج قبل أن تذوب؟

- لا أدري ولكن هل لديك حل أفضل؟.

- لا.

- فلنأمل أن يأتينا الأمير "فضاض" بالمساعدة قبل فوات الأوان.

بدأ الحدادون والمزارعون في حفر الخندق بينما بقي جنود مورد فوق السور ليحاولوا إبطاء حركة أعدائنا قليلاً.

كان السور يتحطم ببطء، وجنود الظلام يزيحون الحطام والركام من طريقهم، وتمكنوا من ثقب جزء صغير في أحد جوانب السور ودخل منه بعضهم.

ذهب مورد نحوهم بسرعة، وتمكن من قتلهم، ووضع كتلة صخرية أمام الثغرة فسدها بينما ذهبت إلى العمال؛ لأساعدهم حتى أتممنا عملنا، وأخبرت مورد فملأنا الخندق بالثلوج، ووقفنا جميعاً خلف تلك الكرات الثلجية الضخمة نحتمي بها.

تمكن الأعداء من هدم السور بالكامل ولكنهم فوجئوا بتلك الكرات البيضاء فتوقفوا حائرين.

كان ذلك الخندق بمثابة هدنة غير معلنة، ولكننا صعدنا إلى قمة القلعة، وبدأنا نرسل إليهم سهامنا الحادة كتحذير أخير لعلهم يتركوننا ويرحلون، ولكنهم لم يحركوا ساكناً وبدأوا يردون علينا بسهامهم.

بعد وقت طويل بدأت كرات الثلج تذوب، وجنود الأعداء يستعدون للاقتحام.

في هذه اللحظة شعرت أنها النهاية التي لا نريدها، لا أحد يريد أن يموت محاصراً كالسجناء، وهناك على بوابة سجنه ينتظره الجلاد بكل قسوة بينما هو مكبَّل اليدين والقدمين بلا فرصة للمقاومه أو الهرب، حتى رأيت ضوء الشمس يعود من بعيد ويعود معه الأمل لأرواحنا التعيسة.

* * *

فضاض

في تلك اللحظة لم تتوقف العجائب، فقد بدأت جبال المملكة البيضاء تتفجر وتخرج من بين ثلوجها كائنات ضخمة من الثلج تشبه الإنسان، لها يدان وقدمان ولها رأس بلا ملامح.

بدأت تلك الكائنات الثلجية تنبثق من قلب الجبال، وتأتي نحونا فتتراص في صفوف أفقية وازدادت أعدادها، فأصبحت كجيش كامل من الجليد يمشي على قدميه.

فتح زعبل الكتاب مرة أخرى، وقرأ سطوراً منه فانحنى كائنان منها، وتسلقت أحدهما مع زعبل بينما تسلق نمير وأسداد الآخر.

قلت لزعبل:

- كل ذلك بداخل كتاب؟!

- العلم في أيدي العقلاء قوة، والقوة في أيدي البلهاء كارثة.

شعرت بسرور رهيب وبهجة تتدفق بداخلي حين أخبرني زعبل أننا متجهون نحو القلعة.

نظرت خلفي نحو المملكة البيضاء، وتمنيت أن تكون كلنار قد فعلتها ونجَت بروحها.

كانت كائنات الثلج رغم ضخامة أحجامها وثقل أوزانها إلا أنها كانت تركض بسرعة كبيرة نحو القلعة، وتشق عباءة الظلام حيث تبعتنا الشمس فوق رؤوسنا واصطحبناها في رحلتنا.

اقتربنا كثيراً حتى أصبحنا خلف جموع الهمج الغوغائية، وبدأت الكائنات البيضاء تلتحم مع حيواناتهم المظلمة فتخرج من بين يديها قطع ثلجية مدببة، وتبقر بها بطونهم.

كانت أكوام الثلج العملاقة تُلقى فوق بقعة مليئة بجنود الجحيم فتحترق أجسادهم البغيضة كأنها حِمم بركانية منصهرة.

وفجأة انقلبت المعركة لصالحنا، وبدأت تلك الجموع الهائلة تفر من أمامنا ولكن كانت الشمس قد بدأت تعود وتنشر ضياءها في كل

الأنحاء، فما إن تلمس أحدهم حتى تحرقه، وتنثر أجسادهم في الهواء كذرات الغبار الناعمة.

فر قائدهم واختفى فجأة كأنه لم يتواجد من قبل، بينما أُصيب بقيَّتهم بالفزع وبدأوا يركضون في كل الاتجاهات الأربعة كالدجاج الذي يخاف من الذبح.

أخذت الكائنات الثلجية على عاتقها مطاردة بقية الجنود والبحث عن قائدهم بينما ترجلتُ وحدي لأذهب إلى القلعة.

كنتُ خائفاً للغاية وأردت أن أطمئن على كلنار، وجدت مجموعة من الجنود قد تجمعوا حول القلعة، وقد تحطم سورها وكانوا على وشك اقتحامها، وكانت كلنار بالخلف تقف مع سيف وبعض الجنود الخائفين، أشهرت سيفي وأسرعت نحوهم، ولكن كانوا قد اقتحموا القلعة واشتبكوا مع جنودها القلائل.

قتلت منهم خمسة حتى وصلت إلى كلنار فوقفت بجوارها سعيداً للغاية تكاد دقات قلبي تحطم ضلوع صدري.

قلت لها بينما ألتقط أنفاسي وأتفادى طعنات الأعداء:

- هل أنت بخير؟.

كانت ملامح وجهها تتحدث نيابة عنها، وتظهر فرحتها، استندت بظهرها على ظهري وقالت:

- نعم بخير، وأنت؟.

- لم تمر عليّ لحظة أسعد من هذه اللحظة.

- لقد افتقدتك بشدة.

- وأنا أيضاً.

فجأة دفعتني للخلف حين هوى جندي بسيفه في الفراغ الذي تركته فابتسمت لها بعد أن أطحت برأسه، وقفت أمامي تبتسم هى الأخرى قبل أن أسرع نحوها، وأدفعها جانباً لأطيح برأس جندي بشع جاء من ورائها، وسمعت صوت ارتطام رأسه بالأرض وشعرت بذرات الهواء قد توقفت، وسكون مقلق قد ملأ المكان رغم ضوضاء الحرب.

قتلت الجندي ولكن استقبلت رمحه بدون رغبة وشعرت بروحي تنتزع من بين ضلوعي بعد أن بدأت أستعيد رغبتي في الحياة.

ثوانٍ معدودات رأيت فيها كل ما حدث لي طوال حياتي، أخي الحبيب الذي سبقني إلى السماء، وكلنار التي سابقت الزمان كي أراها.

توقف كل شيء، وانتهى الصراع، تحول الظلام المدقع إلى بياض ناصع لا تشوبه شائبة، لا شيء سوى روحي الهائمة في الأفق تبحث عن رفيق.

تمت بحمد الله

* * *